الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية
أمانة التعليم

البلاغة

الجزء الثاني

تأليف

لجنة من أساتذة اللغة العربية

١٣٩٢ - ١٣٩٣ و . ر

١٩٨٣ - ١٩٨٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

باسمه تعالى ، وفى هدى من نوره ورعايته وتوفيقه . . نقدِّمُ لأبنائنا ، ولإخواننا المدرسين كتابَ البلاغة . الجزء الثانى .

والكتابُ يعرض المنهج المطور الذى أقرته أمانة التعليم ، فى الصورة التى التقت عليها آراءُ الفنيين ممن وضعوا هذا المنهج ، وهى صورة تختلف إلى حد غير قليل عن الصورة التى كانت تُعْرَض البلاغة بها .

فقد كانت تعتمد على الأَمثلة المبتورة التى تُنْتَزَعُ من نصوصها انتزاعًا يقطعها عن جوها وعن المواقف التى سيقت فيها ،فإذا لم تف بعرض الفكرة وُضِعَت أَمثلةٌ تكملها ، منها ما يحقق غايته ، ومنها ما أَفسده التكلف . وهوَّن ذلك من شأْن الدراسة البلاغية ، وأَضعف الاهتمام بها ، فعجزت عن أَن تحقق أَهدافها فى تنمية قدرات التذوق ، والنقد ، وإرهاف الحس بمواطن الجمال فى الكلام .

وكان لابد من تخطيط جديد للبلاغة ، يعيد إليها قوتها ، فجاءَ هذا المنهج الجديد الذى تم تغييره فى البلاغة – وغيرها – تغييراً جذريًّا .

وكان من أهم مظاهر ذلك التخطيط لهذا الكتاب الذى يرجع بالبلاغة إلى موردها الطبيعى الصافى ، وهو الأَدب ، الذى نشأَت فى ظلاله ، وعاشت مرتبطة به ، ولا سبيل إلى دراستها دراسة صحيحة إلا من خلال نصوصه .

ولهذا حرص الكتاب على أَن تعرض ظواهرها فى ظلال نصوص أُدبيةٍ ، حقيقية ، يَفِى كل نص منها بالوقوف على الظاهرة من ناحيتيها : الفكرية والشعورية ؛ بحيث لا ينتهى الطالب منها إلا وقد عرفها فتعمقها ، وأَحسها فتذوقها .

وتحقيقاً لذلك رفض الكتاب فكرة الأَمثلة المبتورة المصنوعة ، التى تؤَدى أَكثر ما تؤَدى إلى حفظ قوالب جامدة ، لا غناءَ لها فى تربية الحس والذوق .

ثم هو فى كل نص يعرضه على الطالب يعنى غاية العناية بألا يترك الفكرة إلا بعد توضيح يجلوها ، ولا يترك الجانب الشعورى إلا بعد إلقاء الأضواء عليه ، كما يحرص على عرض التعبير الأدبى ، والتعبير العادى الذى يؤدى فكرته ؛ وبذلك يتاح للطالب أن يفهم ، ويوازن ، ويتذوق ، ويحس بما هو جميل ، ويفرق بينه وبين غيره من مألوف الكلام ، أو مما هو مصنوع متكلف .

وهذا الجزء من الكتاب امتداد للجزء الأول ، يسايره من ناحية الاتجاه إلى تطعيم البلاغة القديمة بالنظرة البلاغية الجديدة ، وهو فى ذلك يقف موقفاً واعياً عادلاً يستبقى من القديم خير ما فيه ، ومن الجديد أنضر ما جاء به .

ثم هو إلى هذا قد أعد إعداداً خاصاً يوائم البيئة الليبية التى أعد لها ؛ فهو يرعى الجو الدراسى للطالب فنياً ، ويصله بأدب هذه البيئة الخاصة إلى جانب الأدب القومى العام فى الوطن العربى الكبير .

وبالله التوفيق .

المؤلفون

الأسلوب

مفهومه

(١)

كتب إبراهيمُ الصُّوليُّ إلى محمد بن عبد الملك الزيات يستعطفُه :

« كتبتُ وقد بلغتِ المديةُ المحزَّ[١]، وَعَدَتِ الأيامُ عليَّ بعدَ عَدْوَايَ بِكَ[٢] عليها ، وكان أسوأ الظن أن تسكنَ فى وقتِ حركتها ، وتكفَّ عند أَذَاتِها[٣]، فصرتَ أَضَرَّ عليَّ منها ، فَكَفَّ الصديقُ عن نُصْرَتِى خوفاً منك ، وبادرَ إِليَّ العدوُّ تَقَرُّباً إليك . . » .

(٢)

وكتب ابنُ زيدون – وهو فى السجنِ – إلى أَبى الحزمِ بن جَهْوَرٍ أميرِ قُرْطُبَةَ رسالةً طويلة ، يستعطفهُ فيها ، ومن هذه الرسالة :

« يا مولايَ وسيدِى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، ومن أَبقاهُ اللهُ تعالى ماضىَ حدِّ العزم ، وارىَ زَنْدِ الأَمل[٤]، ثابتَ عهدِ النعمة ، إن سَلَبْتَنِي – أَعزَّك اللهُ – لباسَ إنعامك ، وعطَّلْتَنِي[٥] من حَلْيِ إيناسِك ، وأَظمأْتَنِي إلى بُرُودِ[٦] إسعافك ، وَنَفَضْتَ بى كفَّ حياطَتِك ، وغَضَضْتَ عنى طرف

(١) المدية : السكين ، والحز : موضع الحز أى القطع . وهو مثل يراد به أن الأمر قد وصل إلى غايته من الشدة .

(٢) بعد عدواى بك عليها : بعد أن كنت أستعين بك عليها .

(٣) أذاتها : أذاها .

(٤) الزند : ما تقدح به النار ، وورى الزند خرجت ناره ، والمراد هنا أنك محقق الأمل

(٥) عطلتنى : أخليتنى .

(٦) البرود : الماء البارد .

حمايتِك ، بعد أَن نظر الأَعمى إلى تأْميلى لك ، وسَمِع الأَصمُّ ثنائى عليك ، وأَحسَّ الجمادُ باستنادى إليك ، فلا غَرْوَ قد يَغَصُّ(١) بالماء شاربُه ، ويقتلُ الدواءُ المستَشْفِيَ به ، ويُؤْتَى الحَذِر من مأْمنه ، وتكون منية المتمنى فى أُمنيَّتِه ، والحَيْنُ(٢) قد يسبِقُ جَهْدَ الحريص » .

كلُّ المصائِب قد تمرُّ على الفتى ... وتهونُ غير شَماتـــةِ الحساد

(٣)

وقال محمدُ بنُ عبد الملك الزيات فى رثاءِ زوجته :

أَلَا مَنْ رأَى الطفلَ المفارقَ أُمَّـــهُ ... بُعَيْدَ الكرى عيناهُ تَنْسَكِبان(٣)؟

رأَى كلَّ أُمٍّ وابنَهـــا غيرَ أُمـــه ... يبيتان تحتَ الليل يَنْتَجِيَـان(٤)

وباتَ وحِيدًا فى الفراشِ تُجِنُّـــه ... بلابلُ قلبٍ دائـــم الخَفَقَانِ(٥)

فلا تلحيـــانى إن بكيتُ فإنما ... أُدَاوِى بهذا الدمعِ ما تريانِ(٦)

فهبنى عزمتُ الصبرَ عنها ؛ لأَننى ... جليدٌ ، فمن بالصبرِ لابن ثمانِ ؟

(٤)

وقال الباروديُّ فى رثاءِ زوجته :

لا لوعتِى تدعُ الفؤادَ ، ولا يـــدى ... تَقْوَى على ردِّ الحبيب الغادى(٧)

يا دهرُ فيم فَجَعْتَنِى بحليلـــةٍ ... كانت خلاصةَ عُدَّتِى وعَتَادى ؟

إن كنت لم ترحمْ ضَنَاىَ لبُعْدها ... أَفلا رَحِمْتَ من الأَسى أَولادِى ؟

ومن البليةِ أَن يُسَامَ أَخــو الأَسى ... رَعْىَ التجلُّد وهْو غيرُ جمَادِ(٨)

وَلَهِى عليكِ مصاحبٌ لمسيرَتِى ... والدمعُ فيكِ ملازمٌ لفؤادى !

---

(١) يغص : يشرق .

(٢) الحين : الهلاك .

(٣) تنسكبان : تنصب دموعهما .

(٤) ينتجيان : يتناجيان .

(٥) تجنه : تغطيه . بلابل : وساوس وهواجس .

(٦) لا تلحيانى : لا تلومانى .

(٧) اللوعة : حرقة الحزن .

(٨) يسام رعى التجلد : يَحْمَل عليه .

التوضيح :

ارجع إلى النماذج المتقدمة تجدْ أَن الرسالةَ الأُولى تُمَثِّلُ موقفَ استعطاف ، وقفه الصُّولىُّ يحاول فيه أَن يترضَّى محمدَ بنَ عبد الملك الزيات ، المعروفَ بجبروته وبطشِه ، ومكانِه من الخليفةِ المتوكلِ العباسىِّ بعد أَن تولى الوزارةَ له .

لقد كان الصولىُّ يَسْعَدُ بعطفِ ابن الزيات ، ويستنصرُ به على الناسِ والأَيام ، ثم تحوَّلَ عنه ابنُ الزيات ، الذى خافه الناس وتقربوا إليه ، وقد دفع الخوف أَصدقاءَ الصُّولى أن يبتعدوا عنه ، كما دفعت المطامعُ أَعداءه أَن يتجرَّءُوا عليه .

* * *

انظر إلى طريقةِ الكاتب فى التعبيرِ عن فكرته وشعورِه تَرَ أنه دخلَ على الفكرةِ ، فعرضَ الموقفَ الرهيبَ الذى يواجهُه ، فى مَثَل سائر يصوِّرُ الخطرَ وقد انتهى إلى غايته : « بلغت المدية المحز » .

ثم انتقلْ إلى عَرْضِ ما يلقاه من ابنِ الزيات ومن الناس الذين خافوُه وجاملوه تطالعْكَ كلماتُ الكاتب من وَحْى عاطفة ملتاعةٍ ، ومصارحةٍ مرة : « كان أَسوأ الظن أَن تسكنَ فى وقت حركتِها . صرت أَضرَّ علىَّ منها » ، وتبدو هذه المرارةُ واضحةً فى اختيار اسمى التفضيل : « أَسوأَ . أَضَرَّ » ، كما تبدو فى التأْكيد بالحرف « قد » ، وبالتراكيب المترادفة فى المعنى : « تسكن فى وقت حركتها . تكُفَّ عند أَذاتِها » ، وبالتراكيب التى تأْتلف فى فكرةٍ واحدةٍ ، مع ما يبدو فيها من تَضَادٍّ فى المعنى : « كفَّ الصديقُ عن نُصْرَتِى خوفاً منك . بَادَرَ إلىَّ العدوُّ تقرُّباً إليك » .

وأَلفاظُ الرسالة - كما ترى - تُؤَدِّى مَعَانِيَها فى وضوح ، وتأْتلفُ فى سياقٍ له وقعُه القوىُّ فى النفس بائتلاف كلماتِه ، وما يتخلَّله من وَقَفَات لها جَرْسٌ قوى .

والتعبيرُ الحقيقىُّ هو السائدُ فى هذه العبارة التى اقتطفناها من رسالته ، ولكنك ترى إلى جانبه بعض التعبيرات الخيالية ، الفيَّاضة بالشعور : « بلغت المدية المحَزَّ . تسكن فى وقت حركتها » .

وهكذا ترى نمطاً من الأسلوب ، يمتاز بالقَصْد إلى الفكرة ، والمصارحةِ بها ، وبالتركيزِ فى العبارة ، مع قوةٍ ووضوحٍ .

* * *

وفى النصِّ الثانى لابن زيدون ترى موقفًا قريبًا من الموقفِ الأَول ؛ فقد كان ابنُ زيدون وزيرًا لابنِ جَهْور أَميرِ قُرْطُبة ، وكان مقرَّباً إليه أَثيراً عنده ، ثم غَضِبَ عليه ابنُ جهور ، وأَلقى به فى السجن .

وحاول ابنُ زيدون أَن يستدِرَّ عطفَه ، ويزيل من نفسه ما عَلِقَ بها ، فبعث إليه برسالة طويلة ، منها هذه الفقرة التى نعرضها عليك .

وفيها - كما ترى - يتودَّدُ إلى ابنِ جهور ، ويذكُره إخلاصَه له ، ووفاءه بِعهدِه ، وصدقَه فى خدمتِه صدقًا أَحسَّ به الناس جميعاً ؛ لأَن الجمادَ - فيما يذكرُ - قد أَحسَّ به .

* * *

انظُر إلى ابنِ زيدون : كيف يعبِّرُ عن فكرتِه وشعوره ؟ إنه يبدأُ بِنداء ابنِ جهور ، ولكنه لا يناديه باسمه ، بل يجعلُه مولاه ، وسيدَه ، ومناطَ وُدِّه ، وركنَه الذى يعتمِدُ عليه ، وذُخْرَه الذى يعتَدُّ به ، ويُطنبُ فى ذلك ما شاء أَن يطنب ؛ ليجتذبَ سمعَه إليه .

ثم يُتْبِع نداءه له دعاءً يدعو فيه أَن يظلَّ حاسمَ الإرادة ، محقَّقَ الأَمل ، وأَن يكونَ دائماً مصدرًا للإِنعَام . وهودعاءٌ يلتقى مع ما يقصد إليه من استمالة قلبه .

وبعد هذا التمهيد يعرِضُ ما لَقِىَ منه فى مجاملة بالغة ، فهو حزينٌ ، ولكنه لا يذكُرُ السجن وآلامَه ، والحريةَ ومرارَةَ فَقْدِها ، بل يأْسَى لأَنه حُرِمَ القربَ من ابن جهور ، والائتناسَ به ، والشعورَ بأَنّه موضعُ نصرته ، وحياطتِه ، وحمايتِه .

وهنا يذكُره وفاءه البالغَ له ، ثم لا يلومُ ولا يَعْنُفُ ، بل كأَنه يلتمِسُ مَعْذِرَةً لما أَصابَه منه ؛ لأَن ما أَصابَه - على غرابته - قد يقع فى الحياة .

وإذا تأَملت وجدتَ أَن المعنى الواحدَ يؤَدَّى بأَساليب متعددة : « لا غَرْوَ قد

يَغَصُّ بالماءِ شاربُه . . . والحَيْنُ قد يسبِق جَهْدَ الحريص » ، ووجدت أَن الكاتبَ حريصٌ على أَن يسوق المَثَل مستدلا به : « قد يَغَصُّ بالماء شاربُه » . « يؤتى الحذرُ من مأْمنه » ، وأَنه حريصٌ أَيضا على أَن يستدِلَّ بالشعر ، أَو يقتبس منه ، فقولُه : « بعد أَن نظر الأَعمى إِلى تأْميلى لك ، وسمع الأَصم ثنائى عليك » مأْخوذٌ من قولِ المتنبى :

أَنا الذى نَظَرَ الأَعمى إِلى أَدَبِى وأَسمَعَتْ كلماتِى مَنْ به صَمَمُ

والعبارةُ مبنيةٌ على الجملِ المترادفةِ ، التى تسترسلُ حينًا . وتَنْزِعُ إِلى السجعِ حينًا آخر ، كما فى قوله : « نفضتَ بى كفَّ حياطِتك . غضضتَ عنى طرْفَ حمايتِك » - « سمع الأَصمُّ ثنائِى عليك . أَحس الجمادُ باستنادِى إِليك » ، كما أَنها تعتَمِدُ على التعبيراتِ الخيالية ، وأَكثرُها صورٌ قديمةٌ ، أَوردها الكاتبُ بنصِّها ، أَو فى شىء من الجِدَّة مثل : « عطلتَنِى من حَلْىِ إِيناسك ، غضضتَ عنى طرفَ حمايتك » .

وهكذا ترى طريقةً فى التعبيرِ ، تعتمد على التمهيدِ للفكرة ، والتأَنِّى لعرضها ، والإِطناب فى العبارة ، والاعتماد فيها على الترادُفِ ، وعلى المأْثورِ من الصوَرِ والأَمثالِ ، والشعرِ ، وعلى المراوحةِ بين الترسُّلِ والسجع .

* * *

انتقل إِلى النموذجين : الثالثِ والرابعِ تجدْ أَنهما فى موضوعٍ واحدٍ أَيضاً ، فكلٌّ من : ابن الزياتِ والبارودىِّ يرثِى زوجتَه .

ولكنَّ الزوجةَ كادت تتوارَى فى رثاءِ ابن الزيات ، وظهر التركيزُ - أَكثرَ ما ظهر - على الابنِ الصغير ، الذى لم يتجاوز عمرُه ثمانيةَ أَعوام .

ففى لوعةٍ محرقة يصوِّر الشاعرُ حالَ ابنهِ ، الذى يَهُبُّ من نُعاسه ، فتنسكبُ عيناه حزناً على أمه ، التى لا يجدُها إِلى جانِبه ؛ لتناجِيه ويناجيَها ، كما تصنعُ كلُّ أُم وابنِها حينَ يُظلُّهُما الليل ، وإِذا نام كان وحيداً فى فراشِه لا يحوطُه إِلا قلبُ أَبيه ، وهو قلب دائم الخفقانِ ، كثيرُ الوساوسِ والهَواجس .

وعلى نمط الشعرِ التقليدى القديمِ يتخيلُ الشاعرُ صاحبين له يلومانه على جزَعِه ،

ولكنه يعتذرُ بأنه قد يستطيعُ لِجَلَدِهِ أن يصبرَ على فقد زوجته ، ولكن لا يستطيعُ هذا الابن الصغير أن يتحمل المأساة .

وإذا تأملتَ رأيتَ الشاعرَ يعتمدُ على الحوارِ فى عرضِ مشاعرِه وفكرته ؛ فهو يبدأُ بالتساؤلِ عمن رأى ابنَه بُعَيْدَ الكرى ، تنسكب عيناه ، كما أنه يتخيل بينَ الناس منَ يلْحاه لجزعه ، فيعتذر عن هذا الجزع. وفى التعبير بهذا الأسلوب الإنشائى حَيَوِيَّةٌ ، وحركةٌ وقوة تأْثير ، ورأَيتَ أَيضاً أَنه يعتمد على التصويرِ الواقعىِّ الرائع بدقته ، ومع هذا تجدُ من التصوير الخيالىِّ قولَه : « عيناه تنسكبان . تجنه بلابلُ قلبٍ دائم الخفقان » .

وهكذا ترى لوحةً فنيةً يظهر فيها الابنُ ظهورًا واضحًا ، ولا تكاد تظهرُ فيها الأمُّ ، وترى التصويرَ السائدَ فيها هو التصوير الواقعى ، أَما التصويرُ الخيالىُّ فقليل ، كما أَنك تجد أُسلوباً يعتمدُ فيه الشاعرُ على الحوارِ والإنشاء ، ليشركَهُ الناسُ فى مأْساتِه .

* * *

أَما فى نص البارودى فتطالعُك حرقتُه لفقدِ زوجتِه قويةً سافرة ؛ فهو بين لوعة لا تفارقُ فؤَادَه ، ويد عاجزة أَن تستردَّ هذه الزوجةَ من براثنِ الموت . وهو يتوجه إلى الدهرِ حزينًا عاتبًا ؛ لأَنه انتزعَ منه إِنسانةً كانت كلَّ شىءٍ فى حياته ، وكان عليه أَن يرحم ضنى الشاعر لفقدِها ، أَو أَسَى أَولادِها عليها . . وينتهى إلى أَنه لا يستطيع الصبر عنها ، وأَن حزنَه سيستمرُّ ، ودمعَه لَن يجف .

وفى هذه اللوحةِ ترى أَنَّ الزوجةَ قد ظهرت ظهورًا واضحًا ، وظهر الأَولاد بدرجةٍ أَقل ، وأَن الالتياعَ الذى كان القدماءُ يتحرجون منه هو العنصرُ السائدُ فى هذه اللوحة .

وترى أَن الأُسلوبَ – فيما عدا البيتين الثالثَ والرابع – هو الأُسلوب الخبرىُّ ، وأَنه لا يعدو أن يكون صرخاتٍ حزينة ، يتخلَّلُها من الصورِ الخيالية قوله : « يسامَ رَعْىَ التجلد . وهى عليك مصاحبٌ لمسيرتى » .

ومن الأَلفاظ المرتبطةِ بحياته الحربية : « عُدَّتِى . عتادى . مَسِيرة . . » .

وهكذا ترى نمطًا آخرَ من التعبير عن الشعورِ بفقد الزوجة ، فيه الإِحساسُ القوى بها ،والالتياعُ الصارخُ عليها ، وفيه المعانى الفِطْرِيةُ القريبة ، والأَلفاظُ المتصلةُ بحياة الشاعر.

* * *

الخلاصة :

مما تقدم يتبين لك :

١ – أَن الأُسلوب هو طريقةُ الأَديب فى التعبيرِ عن أَفكارِه ومشاعرِه .

٢ - أَن لكل أَديب أُسلوبَه فى التعبير عن نفسِه ، ونهجَه فى التفكير ، والتصوير ، واختيارِ الأَلفاظ ، وصياغةِ العبارة .

٣ – من الطبعى أَن تختلف أَساليبُ الأُدباء ؛ لأَن الأُسلوبَ وليدُ الشخصية ، والبيئة ، والثقافةِ ، والعصرِ ، وغيرِها من المؤَثراتِ التى تُؤَثِّر فى الأَديب ، وهى تختلف من أَديب إِلى أَديب .

وفى النصوص الأَدبية التى درستَها وتدرسُها ما يجلو لك هذه الحقائق .

* * *

أنواع الأُسلوب

(١)

لنشأَت التغلبيِّ وقد وقف يشاهدُ حركةَ العملِ فى بناءِ السدِّ العالى :

« عشراتُ الأُلوف يعملون فى قَيْظِ الظهيرة : يشقُّون الصخور ، ويقتلُون هامات الجبال ، ويحرِّكون الآلات الجبارة ، غير مبالينَ بحرٍّ أَو عرق ، وكأَن جحيمَ القيظِ قد صارَ عليهم بردًا وسلاما ، بل كأَن غِلالَةً من الإيمانِ العظيمِ والعزيمةِ الصادقة تحجب عنهم عُتُوَّ الطبيعةِ وقسوتَها . إن الذين يزورونَ السدَّ العالىَ من أَىِّ بلد من بلاد الدنيا يَحْنُونَ رُءُوسَهم إجلالاً لهؤُلاءِ الذين عَمِلوا فى صَمْتٍ وإخلاص ؛ لِيُشَيِّدُوا هذا الصرحَ العظيمَ ، دليلًا على انتصارِ الإرادةِ العربيةِ فى نضال العروبة من أَجل الحياة الكريمة .

(٢)

من استطلاعٍ صحفى بمجلة « العربى » .

من السهلِ القولُ بأَن السدَّ العالىَ عملٌ معجزٌ ، ولكن إذا ترجَمْنَا هذا الإعجازَ إلى لغةِ الأَرقام كان هذا تأْكيداً وتثبيتًا للمعجزة . إن أَقصى ما توصَّلَ إليه الأمريكيون والكنَدِيون من أَعمال الحفرِ فى مشروع شلالات « نياجرا » كان (٣٥٠) خمسين وثلثَمائة أَلف متر مكعب فى الشهر ؛ وإن أَقصى رَقْمٍ للحفر فى مشروعٍ براتزك فى روسيا كان (٣٤٠) أَربعين وثلثَمائة أَلف متر فى الشهر ، وإن الدولَ الكبرى تعتزُّ بهذه الأَرقام ، وَتَعُدُّهَا دليلًا على العملِ المنظَّمِ الجبار الذى قامت به ، وتسجِّلُها على أَنها أَقصى أَرقامٍ قياسية وصلَ إليها العالَمُ كلُّه .

وقد كان العمالُ بالسد يحفِرُون فى صُخُور الجرانيت ، أقسى وأَصلبِ الصخور ، ومع ذلك وصلوا إلى حفر (٥١١) أَحدَ عشرَ وخمسمائةِ أَلف مترٍ مكعب

من الصخورِ فى الشهر ، يحدوهم الإيمانُ بخطورةِ العمل؛من أجل رفاهيةِ الأَجيالِ القادمة .

(٣)

من حديث عن السد :

نظرت مصرُ إلى النيلِ ، فوجَدتْه يقذفُ بنفسِه فى البحر المِلْح ، بعد رحلة طويلة تدومُ مائةً وخمسين يوما ، يقطعُ خلالَها ستةَ آلافِ كيلو متر ، من خط الاستواءِ إلى مصبه فى رشيد ودِمياط ؛ ليُلْقِيَ فى البحر سنويًّا مقادير هائلةً من المياهِ تذهبُ سُدًى ، والأَرْضُ الطيبةُ تشكو الظمأَ وقلةَ الماءِ .

وهو بعد ذلك لا يثبُت على حال واحدة فى جميع السنين ، فمرةً يأْتى شحيحًا ضعيفا ، فيقتُل الزرع ، ومرة يأْتى مُزْبِدًا هائجًا غزيرا يُخْشَى منه الغرق .

ومن هنا جاءت ضرورةُ السيطرةِ على مجرى النهرِ الجبار ، وإخضاعه لإرادة الإنسان .

التوضيح :

قدمنا لك ثلاثا من القطع ، تستطيع أَن تتبين فيها معالمَ لنوعِ الأُسلوب فى كل منها :

فى نصِّ التغلبىِّ وقف الكاتبُ مبهورًا أَمام حركةِ العملِ فى بناءِ السدِّ العالى ، فنقَل إليك فى الفقْرَةِ الأُولى صورةَ آلافِ العمال يكدحون فى أَعالى الجبال ، يحرِّكونَ الآلاتِ الجبارة ؛ لتشقَّ الصخورَ الصَّلْدَةَ العاتية ، والجوُّ قائظٌ ملتهب ، ولكنهم لا يبالون قَسْوتَه ؛ لما يملأُ قلوبَهم من العزيمة القويةِ ، والإيمانِ الصادق .

ونقل إليك فى الفقرة الثانيةِ صورةً أُخرى : تمثلُ إعجابَ الزائرِين من كلِّ أَنحاءِ العالم بأُولئك الكادحين فى إخلاص وصمت ؛ ليشيِّدُوا السدَّ العظيم ، فيشمَخَ معلناً انتصارَ الإرادة العربية ، والعملِ العربىِّ فى سبيلِ الرخاءِ والعيش الكريم .

وأَنت ترى الكاتب قد توخَّى أَن ينقُلَ إلينا شعوره بالتعاطُفِ مع أُولئك العمالِ

فى كَدْحِهم الدءُوبِ المخلص ، والإعجابِ بما امتازُوا به من القوةِ والصلابةِ ، ويعبر عن إحساسه بالتقدير العميقِ لعملِهم المثمر.

ولم يلجأ الكاتبُ فى نقلِ أفكاره ومشاعره إلى الأسلوبِ العادىِّ بل إلى أُسلوبٍ ذى ملامحَ وسمات ساعدت على نقل فكرِه ممزوجًا بعاطفته .

فاستعان بعددٍ من الصور والأخيلة المعبرةِ المؤثرة ، ومنها :

(يعتلون هاماتِ الجبال . كأَن غلالةً من الإيمان العظيم تحجُب عنهم عُتُوَّ الطبيعة . كأَن جحيم القيظِ قد صار عليهم بردًا وسلاما . يحْنون رءُوسهم إجلالا) .

وحرص على اختيار الأَلفاظ ذات الإيحاءِ القوى .

ومن ذلك : (عشرات الأُلوف . قيظ . الجبَّارة . جحيم . عُتُو. قسوة) .

كما حرص على أَن يتأَنَّقَ فى تأْليف عبارته على نسق يوفِّرُ لها هذا الإيقاعَ الموسيقىَّ المؤَثر الذى تُحسُّه فى ائتلاف الكلمات ، وفى تسلسل الجملِ والتراكيب . ومثلُ هذا الأُسلوب يسمى الأُسلوبَ الأَدبى .

* * *

وفى الاستطلاعِ الصحفىِّ عن السدِّ العالى ترى حديثاً يبدأُ بفكرة : « أَن السدَّ عملٌ معجز »،ثم بإثبات هذه الحقيقة ، وتأْكيدها بلغة الأَرقام التى لا مجالَ فى دلالتها للتفاوتِ والاختلاف ، فأَعمال الحفر فى السدِّ تُحْسَبُ بمقدار الرُّكُامِ الذى يتَخَلَّفُ عنها فى « شهر » واحد ، وهى بهذا المقياس تفوقُ أَعمالَ الحفر التى سجَّلَتْها دولُ العالمِ الكبرى فى المشروعات الإنشائية المماثلة ، كشلالات « نياجرا » فى أَمريكا ، ومشروع « براتزك » فى روسيا ، مع أَن العملَ فى منْطَقَةِ السد قامَ على الحفر فى صخور « الجرانيت » ، وهى من أَقسى الصخور وأَصلبها .

وإذا رجعت النظرَ فى أُسلوب هذه القطعة ، ووازنْتَه بأُسلوب النصِّ الأَول وجدت أَنهما مختلفان ، وأَن ملامحهما متغايرة ، مع أَن موضوعَهما واحد .

فالغرض هنا هو عرضُ الفكرة ، وإثباتُها ، والإقناع بها ، لا التأْثيرُ بلونٍ معين من المشاعر والأَحاسيس ، والعبارةُ تعتمدُ فى توصيلِ الفكرة على لغة الأَرقامً ذات الدلالة الدقيقة الثابتة .

كما تعتمدُ على الترتيب الذى يساعدُ على استيعاب الحقائق ؛ فقد عُرِضَتِ الفكرةُ أَولا ، ثم أُورِدَتِ الأَدلةُ على صحتِها من المشاهداتِ والتجاربِ المماثلةِ مؤَيدةً بالأَرقام .

وفى سبيل أَداء الفكرةِ أَداءً دقيقاً محدوداً خلت العبارة من الأَمثلة والصورِ البلاغيةِ ذاتِ الإِشعاع الوجدانى . والأَلفاظ – كما ترى – مستخدَمةٌ فى معانيها الحقيقية ، وبناءُ الجمل والتراكيب هو البناءُ العادىُّ المأْلوف .

ومثل هذا الأُسلوب يسمى الأُسلوبَ العلمى .

* * *

والقطعةُ الثالثةُ حديثٌ عن السد أَيضاً ، يوضحُ بعض الأَسباب التى دفعت إِلى بنائه ، فهو وسيلةٌ للسيطرة على مسيرة النهر ، وتنظيم مائه ، وحسنِ الانتفاعِ به ؛ حتى لا تضيعَ منه سُدًى مقاديرُ هائلةٌ فى البحر ، والأَرض من حوله فى حاجة إِلى كل قطرة منه ، وحتى لا يُرَوَّعَ أَهلُ الوادى بين الحينِ والحين بمفاجآتِ فيضانِه الشحيح أَو فيضانه الغامر المدمِّر .

ولو عاودتَ النظر فى أُسلوب هذه القطعة ، ووازنتَه بالأُسلوب فى النصينِ السابقين لأَدركتَ أَنه يجمع ملامحَ من هذا ومن ذاك :

فالطابَعُ الفكرىُّ يغْلِبُ عليه ، وفيه اعتمادٌ على الأَرقام فى توضيح الحقائق ، كالذى تراه فى بيان المدى الزمنىِّ للرحلة التى يقطعُها النهرُ من منبعِه إِلى مصبه ، والمدى المكانىِّ لمجراه من خط الاستواءِ إِلى البحر .

وأَكثر الأَلفاظ مستخدمةٌ فى معانيها الحقيقية ؛ لتعين على أَداءِ الفكرة فى وضوح .

وهذا – كما عرفت – من سماتِ الأُسلوب العلمى .

ولكنك – إِلى هذا – ترى فى النصِّ محاولات لصَبْغِ أُسلوبه بالصبغةِ الأَدبية :

– ففيه بعضُ الصورِ البلاغيةِ ذات الإِيحاءِ الوِجْدانى ومنها : (يقذف بنفسه فى البحر) . (الأَرض تشكو الظمأَ) . (يأْتى شحيحا) . (أَتى مُزْبدًا هائجا) .

وفيه دلائلُ على التأَنقِ فى صوغ العبارةِ ، وترى ذلك فى ائتلافِ الكلمات ، وتسلسلِ الجمل والتراكيب ، وفى هذه المطابقة الطبيعيةِ المستَحْسَنَة بين شُحٍّ النهر وضعفه حيناً ، وازديادِه وهِياجه حيناً آخر . وهذا – كما عرفت – من سماتِ الأسلوبِ الأَدبى .

ولذلك يسمى هذا الأُسلوب (الأُسلوب العلمى المتأَدب) .

الخلاصة :

مما تقدم يتبين أَن الأُسلوبَ يتنوعُ بحسب السمات الغالبةِ عليه ، فمنه : الأَدبى ، والعلمى ، والعلمى المتأَدب .

١ – ويمتاز الأُسلوبُ الأَدبى بأَن الفكرَ فيه يَمتزجُ بالعاطفة ، وهدفُه الإِقناع والتأْثير معا ، وهو يستعينُ بالأَخيلةِ والصور لنقل أَحاسيس الأَديب ومشاعره إلى القارئ والسامع ، كما يبدو فيه الاهتمامُ باختيار الأَلفاظ ، والتأَنقِ فى تأْليفِ العبارة وتنسيقها ؛ بحيث يخرج الكلامُ مشرقا ، ممتعاً ، له جرسُه فى السمع ووقعه فى النفس .

٢ – ويمتاز الأسلوبُ العلميُّ بأَنه يَقصِدُ إلى بيانِ الحقائقِ وإيصالها إلى الأَذهان فى وضوح .

والأَلفاظُ فيه دقيقةُ الدلالة ، مستخْدَمةٌ فى معانيها الحقيقية ، ومن سماته : الترتيبُ ، والتقسيمُ ، والاستنادُ إلى الأَرقام والمصطلحاتِ ، والملاحظةِ والتجربة .

٣ – أَما الأُسلوبُ العلميُّ المتأَدبُ فيغلِبُ عليه الطابَعُ العلمى ، ولكنه يأْخذُ من سمات الأُسلوب الأَدبى بنصيب ؛ لأَنه ينقُل الحقائقَ ممتعة مؤَثرة ، مع دقتها ، ووضوحِها .

* * *

بناء الجملة والعبارة

١ - بناء الجملة

من كتاب الوعد الحق للدكتور طه حسين :

قال ياسر بن عامر لأخويه مالك والحارث :

عودا إن شئتما إلى أرض اليمن ، أو اضربا إن شئتما فى الأرض العريضة ، فأما أنا فمقيم . قد أعجبتنى هذه الأرضُ ، فلست أعدل بها أرضًا أخرى ، ورضيت بهذه الدار ، فلست أبغى بها بديلاً ، وما رحيلى عن أرض وجدت فيها الأمن بعد الخوف ، والقوة بعد الضعف ، والسعة بعد الضيق ؟

قال أخوه مالك :

بل قل : ما رحيلى عن أرض فيها هذه الفتاةُ السوداء التى لا تملك من أمرها شيئا ، ولكنها تملك من أمرك كل شيء ؟

قال ياسر :

فظنا بى ما شئتما من الظنون ، ولكنى مقيمٌ . لن أبرحَ هذه الأرض ، ولن أتحولَ عن هذه الدار .

* * *

عرفت فى باكورة عهدك بالدراسة أن الجملة قد تكون اسمية مثل : « أنا مقيم » ، وركناها هنا هما : المبتدأ « أنا » ، والخبر « مقيم » ، وقد تكون فعلية مثل : « قال ياسر »،وركناها هنا هما : الفعل « قال » ، والفاعل « ياسر » .

وعرفت أيضا أن الجملة الفعلية قد تكون مكونة من ركنيها دون زيادة ، وقد تنمَّى بمكملات متعددة من : مفعول به : أو ظرف ، أو جار ومجرور ، أو حال ، أو مفعولٍ لأجله،أو نحو ذلك . كما أن الجملةَ الاسمية قد تكون مكونةً من ركنيها فحسبُ ، وقد تزاد فيها هى الأخرى بعضُ هذه المكملات .

ويلاحظ أن خبرها قد يأتى مفرداً كما سبق ، وقد يكون شبهَ جملة ، أو جملةٍ اسمية ، أوجملة فعلية .

والمألوف فى الجملة الاسمية أن يتقدم المبتدأ ، ويأتىَ بعده الخبر ، كما أن المألوف فى الجملة الفعلية أن يتقدمَ الفعل ويتبعه الفاعل ، ثم تأتى مكملات الجملة .

ولكن الأديب - فى ظل شعور خاص ، أو اهتمام فكرى معين - لا ينتهى عند المألوف فى تكوين الجملة ، بل يتصرف فيها تصرفًا يُكسبها القدرة على إعطاء دلالاتٍ جديدةٍ فكرية وشعورية ، وذلك دون حاجة إلى تعبير خاص .

تأمّل قول طه حسين فى القطعة السابقة حكايةً عن ياسر : قد أعجبتنى هذه الأرض .

تجد فى هذه الجملة توكيداً أفادته (قد) ، وقوَّت هذا التوكيد إشارته إلى هذه الأرض التى أحبها بلفظ (هذه) .

وتأمَّل جملة : « أما أنا فمقيم » تجد فيها توكيداً بلفظ « أما » ؛ لأن معناها : مهما يكن من شىء فأنا هنا مقيم .

ثم انظر إلى قوله : لنْ أتحولَ عن هذه الأرض .

تجد أن هذه الجملة - وإن كانت قد خلتْ من كل أدوات التوكيد المألوفة - فإن بناءها - مع ذلك - يفيد الإصرار ؛ فقد اختار للنفى « لن » التى تدل على تأبيد النفى فى المستقبل ، وأتى بعدها بالفعل « يتحول » ؛ لتدل على أن ياسراً لا يبتغى حركة تبعد به قليلا أو كثيراً عن مكة ، كما أتى باسم الإشارة (هذه) الذى يدل على اعتزازه بها ، وبالعيش فى ربوعها .

وانظر إلى قول الكاتب :

« لست أعدل بها أرضاً أخرى - لست أبغى بها بديلاً » . تجدْه قد قدَّم الجار والمجرور « بها » فى الجملتين ، ودلَّ هذا التقديم على الاهتمام بهذه الأرض ، وعلى الحب الشديد لها ، وذلك فوق ما أدَّاه من جرس وإيقاع فى نهاية الجملتين .

ثم إنك واجد فى هاتين الجملتين - وأمثالهما - نكرة وقعت بعد نفى ، وهذه النكرة فى الجملة الأولى « أرضًا » ، وفى الثانية « بديلاً » . وبناء الجملة على هذا

النحو يفيد التعميم: « لست أعدل بها أى أرض » ، « ولست أبغى بها أى بديل » وفى هذا التعميم دلالة واضحة على ما يكنه ياسر لهذه الأرض من حب وثيق عميق .

وإذا وقفت أمام قوله :

ظُنَّا بى ما شئتما من الظنون .

وجدت أمراً صادراً من ياسر إلى أخويه ، ولكن الكاتب لا يريد هذا الأمر على حقيقته ، بل هو يحمِّله كثيراً من عدم الاكتراث أو المبالاة ، ويريده أن ينقل هذا الشعور إلى السامع والقارئ .

وإذا نظرت إلى قوله على لسان مالك لأخيه ياسر :

« بل قل : ما رحيلى عن أرض فيها هذه الفتاةُ السوداء التى لا تملك من أمرها شيئا ، ولكنها تملك من أمرك كل شيء ؟ » .

فإنك تجد الكاتب قد حمَّل هذا الأسلوب الاستفهاميَّ من السخرية والتهكم ما حمّله ، وقد زاد فى ذلك ما تضمنته الجملة من وصف هذه الفتاة بأنها « سوداء » ، وأنها « لا تملك من أمرها شيئا » ، ثم أكد هذا عن طريق المقابلة فى قوله :

« لا تملك من أمرها شيئا – تملك من أمرك كل شيء »

فقد أريد بها تأكيد المعنى عن طريق هذا التضاد . « وبضدها تتميَّزُ الأشياء » .

* * *

وهكذا ترى فى ضوء ما سبق عرضه :

١ – أن الأديب يتصرف فى بناء الجملة باختيار ألفاظها ، أو التقديم والتأخير فى بعض كلماتها ، أو زيادةِ مؤكدات وأدوات لها مغزاها ، أو بنائها فى شكل استفهام ، أو أمر ، أو نفى . . . أو بغير ذلك من ألوان التصرف البلاغى فيها .

٢ – يخضع التصرف فى بناء الجملة لما يريد الأديب أن يؤديه من دلالة ، أو يضيفَه من شعور لا يتأتى إلا بهذا التصرف البلاغى الذى قصد إليه .

ب – بناء العبارة

فهمت من القطعة السابقة أن الدكتور طه حسين يتحدث عن ياسرٍ وأخويه مالك والحارث اللذين كانا قد خرجا للبحث عنه ، ومرَّا – فى بحثهما – بمكة فألفياه هناك ، وأرادا أن يعودا به إلى قبيلته وأهله فى تهامة اليمن ، ولكنه أنِس إلى البقاء فى مكة ، وتعلَّق قلبه بسميَّة جارية حُذيفة بن المغيرة الذى ضم ياسرًا إليه . وكان ياسر كأنما يحس عهدًا جديدًا من النور سيشرق من هذا البلد، ففضَّله على سواه .

فهذه القطعة يتركز معناها فى محاولة الأخوين إقناع أخيهما ياسر بالعودة إلى ديارهم ، وتصميمه على البقاء .

وإذا تأملت هذه العبارة وجدتها مبنية بناء خاصًّا .

انظر إلى الفقرة الأولى منها : « عودا إن شئتما إلى أرض اليمن . . أما أنا فمقيم » تجدْ أن ياسرًا يريد أن يقول لأخويه : أنا أحب الإقامة فى مكة ؛ لأنى وجدت فيها ما كنت أودُّ من الأمن ، وسعة العيش ، والشعور بالقوة . فعـودا أنتما إلى موطنكما ، أو اذهبا إلى حيث شئتما ، ولكنى مقيم لا أتحول عن هذه الدار إلى غيرها .

ولكن الكاتب لم يبن عبارته هذا البناء العادىَّ بل تراه يبادرك بالنتيجة « عودا . . . أما أنا فمقيم » .

وليس من ريب فى أن تصميم ياسر على البقاء جاء بعد الحوار معه ، ولكن الكاتب قدَّم ما كان من شأنه أن يتأخر ، وقد فعل ذلك لأنه يهْتم بهذه الفكرة من جهة ، ولأن تقديمها ينقل إليك الجو الشعورى المسيطر على نفس ياسر (جو الاطمئنان وعدم التردد) من جهة أخرى .

وهذه الفكرة عرضها الكاتب فى عبارة من ثلاث جمل :

الأولى « عودَا إن شئتما إلى أرض اليمن » ، وفيها يترك ياسر لأخويه الحريةَ فى العودة إلى اليمن ، ولكن الكاتب لا يكتفى بهذه الجملة،بل يعطف عليها الجملةَ الثانية « اضربا إن شئتما فى الأرض العريضة »،وهى جملة شبيهة بالأولى قريبة منها

فى المعنى ، وهو يسوق العطف هنا بالحرف « أو » الذى يدل على التخيير . ثم يتبعُ هاتين الجملتين بجملة ثالثة هى قول ياسر : « فأما أنا فمقيم » تلك الجملة التى تدل على التصميم ، وحرف العطف فيها هو الفاء التى تدل على الترتيب والتعقيب من غير فاصل زمنى ، فكأنه يبادر فيعطى الحكم الذى ارتضاه لنفسه ، وهو الإقامة التى لا يتحول عنها ، ولا يرضى بها بديلا .

وهكذا يصنع الكاتب ذلك كله من اختيار جمل ثلاث تدور فى إطار فكرة واحدة تجمعها ، ومن الوصل بينها بالحرف المناسب ليؤكدَ فكرة الإصرار على الإقامة ، وليضفى على الموقف الجوَّ الشعورى الملائم لهذا الإصرار .

وينتقل الكاتب إلى فكرة أخرى متصلة بالأولى ، وهى التى توضح سبب إيثار ياسر لمكة على غيرها ، والكاتب يعرض هذه الفكرة فى جمل متعددة : « قد أعجبتنى هذه الأرض » . « لست أعدل بها أرضا أخرى » . « رضيت بهذه الدار » ، « لست أبغى بها بديلا » ، « وما رحيلى عن أرض وجدت فيها الأمن بعد الخوف ، والقوة بعد الضعف ، والسعة بعد الضيق » ؟

وإذا نظرنا فى أناة إلى بناء العبارة من هذه الجمل وجدنا أن الكاتب قد بدأ بجملة وُضعت موضعها ، فياسرٌ بعْد أن أعطى أخويه الحق فى أن يختارا ما يعجبهما أصبح من حقــه – هو الآخر – أن يختارَ ما يعجبه ، فيقول « قــد أعجبتنى هذه الأرض » .

ويبادر فيأتى بما يترتب على هذا الإعجاب،فيقول : « لست أعدل بها أرضاً أخرى » ، ثم يأتى بعد هاتين الجملتين بما يؤكد معناهما : « رضيت بهذه الدار ، فلست أبْغى بها بديلا » . ومن خلال هذا التوكيد تستشف الشعور العميق بحب مكة وما فيها حبًّا قد ملك على ياسر نفسه .

ويمضى الكاتب فيسوق استفهاماً على لسان ياسر : « وما رحيلى عن أرض وجدت فيها الأمن بعد الخوف . ؟ » وفى هذا الاستفهام تعجب ودهشة ، كما أن فيه معنى النفى الباتِّ ، وفى ثنايا هذه الجملة تأتى تراكيبُ عُطف بعضها على بعض تبرز شدة الرغبة فى هذا البقاء وتزكِّيه .

ويعقِّب الكاتب على هذا بكلام مالك « بل قل : ما رحيلى عن أرض فيها هذه

الفتاة . . . ؟ » وهو كلام جديد يختلف قائله عن قائل الكلام السابق ؛ ولهذا فُصل عما قبله ، وقد وقع موقعاً جميلاً إذ جاء فى أسلوب استفهام يشبه من الناحيةِ الشكلية الاستفهامَ الذى ساقه ياسر ، ولكنه ينقضه من ناحية الفكرة ؛ فهو يزعم أن استمساك ياسر بالبقاء فى مكة مردُّه حبه لسميَّة ، ويفيض ذلك سخرية بهما ، ونيْلا منهما .

وأخيراً تجد على لسان ياسر أسلوب أمر يدل على عدم الاكتراث أو المبالاة : « ظنا بى ما شئتما من الظنون » ، ثم تمضى هذه العبارة فى تكرار معنى الإصرار « لكنى مقيم ، لن أبرح هذه الأرض » ، وقد فصلت الجملة الثانية من هاتين الجملتين عن الأولى ؛ لأنها مؤكدة لها ، ويستمر هذا الإصرار ماثلا فى قوله « لن أبرح هذه الأرض ، ولن أتحول عن هذه الدار »،وهاتان الجملتان ربطت بينهما الواو ؛ لأنهما تلتقيان فى معنى واحد .

وهذه الجمل جميعها تؤكد ما يريد الكاتب تأكيده من فكرة وشعور .

* * *

وهكذا نرى :

١ – أن للعبارة الأدبية بناءً خاصًّا ، فقد يعرض الأديب المعنى فى أكثر من جملة ، وقد يصل الجمل أو يفصل بينها ، وقد يقدم أو يؤخر فيها ، وقد يعرض جملة فى صورة خبرية ، ويعرض أخرى فى شكل أمر أو استفهام أو نحوهما .

٢ – يبنى الأديب عبارته ، ويتصرف فيها فى ظل الانتقالات الفكرية والشعورية التى يقتضيها المقام ، وتعطى العبارة الأدبية على هذا النحو من القيم الجمالية ما لا تعطيه العبارة العادية المألوفة .

عناصر الأسلوب الأدبى

(١)

للبحترى فى وصف الربيع :

١ – أَتاك الربيعُ الطلقُ يختالُ ضاحكاً   من الحسنِ حتى كاد أَن يتكلَّمَا
٢ – وقد نبه النيروزُ فى غَسَقِ الدُّجَى   أَوائلَ وَرْدٍ كن بالأَمسِ نوَّما[١]
٣ – يُفَتِّقُها برد النـدى ، فكأَنـه   يبُثُّ حـديثاً كان قَبـلُ مُكَتَّمَـا
٤ – فمن شجرٍ رد الربيـع لباسَـه   عليـه كما نَشَّرْتَ وَشْياً مُنَمْنَما[٢]
٥ – أَحَلَّ فأَبـدى للعيـون بشاشةً   وكان قَذًى فى العين إذ كان محرما[٣]
٦ – ورق نسيم الريحِ حتى حسبته   يجىءُ بأَنفاسِ الأَحبـة نُعَّمَـا

* * *

(٢)

ولأَحمد أَمين فى الربيع (بتصرف) :

هذا أَنت أَيها الربيع . أَقبلتَ فأَقبلتْ معك الحياةُ بجميعِ صنوفها وأَلوانها . النباتُ يَنْبُت ، والأَشجار تورِق وتُزْهر ، والقُمرىُّ يَسْجع ، والحَمَامُ يَهْدلُ ، والغَنَمُ تَثْغُو[٤] ، والأَغصان تمايل .

كل شىءٍ يشعرُ بالحياة ، ويمتلئُ بالحياة ، فإن كان الزمانُ جَسَداً فأَنت رُوحُه ، وإن كان عُمْراً فأَنت شبابُه .

---

(١) النيروز : أول السنة الشمسية عند الفرس ، وغسق الدجى : ظلمة الليل .
(٢) الوشى : الثوب المنقوش والمنمنم : المحسن .
(٣) أحل : اكتسى بالأوراق بعد أن كان عارياً . محرماً : المراد أنه كان عارياً من أوراقه .
(٤) تثغو : الثغاء صوت الشاة .

جعلتَ الدنيا ملءَ العيون بما أَبدعتَ من أَلوان ، وما أَمْلَتَ من أَغصان ، وما حُكْتَ(١) من وَشْيٍ ، وما صغت من جمال .

وكما جعلتَ الدنيا ملءَ العينِ جعلتَها ملءَ السمع ، فرأَت الأَطيارُ ما وشَّيْتَه فى أَرضك ، فحرَّكَ أَشجانَها ، وأَطلق أَصواتَها ، وجعلتَ منها موسيقًا مختلفةَ النغمات ، متعددةَ الأَصوات ، ثم هذا أَنت قد ملأْت الجوَّ عطراً بأَزهارِك العطرة ، وثمارِك الطيبة ، فأَنعشتَ النفوسَ ، وبعثْتَ الأَمل .

ليت الزمانَ كان ربيعاً كلّه ، إذن لَتذوَّقَ النـاسُ الجمالَ كما ينبغى ، فكان كلُّ ما يصدُرُ عنهم جميلاً لا قُبْحَ فيه ، خيرًا لا شَرَّ فيه ، وهل الفضيلةُ والحقُّ إلا جمالٌ كجمال الربيع ؟ ! .

التوضيح :

تأَمل النموذجَ الأَول ، وهو للبحترىّ فى وصف الربيع تجد أَن الشاعرَ يصوِّرُ الربيعَ زائراً قَدِمَ يختالُ فى بشاشة وبهجة ، وقد ازدهاه جمالُه ، فكادَ من فرط حسنه يَنْطِق ، ومرَّ النيروزُ تحتَ ستارِ الظلام ببواكيرِ الورودِ النائمةِ فأَيقظها ، ونزل عليها الندى ففتَّحها ، وأَذاعَ ما كان مكتوماً من عَبِيرِها ، وازدهى الشجر بأَوراقه الخُضْر ، تتخللُها الأَزهار بأَلوانِها المختلفة ، فكأَنما اكتسى أَثوابًا مُوَشَّاةً بالنقوشِ الجميلة ، وكأَنما أَحل بعد إحرام ، وهبت الأَنسامُ بليلةً عَطِرَة ، كأَنما تَحْمِلُ لرقتِها وأَريجِها أَنفاس الأَحِبَّة المترَفين المنَعَّمِين .

وفى هذا النموذجِ ترى الشاعرَ منفعلًا بجمالِ الربيع ، مأْخوذًا بفتنتِه وسحره ، وقد جاشت نفسُه بهذا الشعور ، فصوَّرَه فى هذه اللوحةِ الجميلة .

وفيها – كما ترى – عنصرٌ فكرىٌّ يتمثل فى مجموعةِ المعانى التى ساقها الشاعر : من إقبالِ الربيعِ بجماله ، وتفتحِ الورود ، وانتشار عبيرها ، واكتساءِ الشجرِ بعد عُرْى ، وَرِقةِ الأَنسام ، ولطف مسراها .

ولكن هذه المعانى لم تَرِد فى تصويرِ الشاعرِ مجردةً معروفة ، بل امتزجت بها

(١) حكت : نسجت .

عاطفتُــه ، فأَضفَتْ عليها من حِسِّه وشعورِه دلالاتٍ جديدةً لم تكُنْ لها ، إذ حركت خياله ، فانطلق إلى مجموعة من الصور ، تعبِّر عن هذه العاطفةِ ، التى استباها الربيع بجمالِه وحيويتِه وبهجتِهِ .

ومن هنا يأْتى العنصرُ الثانى فى اللوحة ، وتراه واضحًا فيما تخيَّلَه الشاعر : « الربيع زائرٌ طَلْقُ المحيا يختال من فَرْطِ حسنه ، والنيروز يمرُّ بالورود النائمة ليوقظَها ، والعبير يفوح من الورود ، كما يذيع السرَّ الذى كان مكتوما ، والشجرُ يزدهى بحلله المنقوشةِ ، ويُحلُّ بعدَ إحرام ، والنسيم ينطلِقُ رَقيقًا عطرا كأَنفاس الأَحبة المنعمين » .

وذلك كله ينسابُ فى عبارة ، انتقى فيها الشاعرُ الأَلفاظ التى تتلاءم مع الجو النفسيِّ المسيطر عليه : « الطلق . يختالُ . ضاحكا . الحسن . يفتقها . مكتَّما . نشَّرتَ . بشاشة . رَقَّ . . » .

وقد صاغ الشاعر هذه الأَلفاظ فى نَسَقٍ من التعبير له تأْثيره فى النفس ؛ فقد آثر الخطابَ فى « أَتاك » ؛ ليعقدَ صلةً بين السامع والربيع ، وجاءَ بهذه الأَوصاف المتتابعةِ المتدرجةِ: « الطلق . يختال . ضاحكاً من الحسن . كاد أَن يتكلما » ؛ فاستثار القارئَ شيئا فشيئا ، حتى يَبْلُغَ بهذه الاستثارةِ غايتها .

وأَتى فى البيت الثانى بلفظة (قد)؛ليؤَكدَ فكرتَه ، كما أَتى بالفعل « كنَّ » و« نوما »؛ليُشَخِّص الورود ، ويضفى عليها صورة إنسانية ، ليست لها ، وجاءَ فى البيت الخامس بمطابقة تبين الفرقَ الكبير بين بشاشَة الشجرِ حين اكتسى بورقِه وزهرِه ، ومنظرِه الكئيب وهوعارٍ من ثيابه .

وإلى هذا ترى أَن تسلسلَ العبارة ، وانسيابَها ، وانتهاءَ القافية بالأَلف تعطيكَ جرسًا موسيقيًّا فيه حيوية الربيع وبهجتُه . . ومن هنا يأْتى العنصر الثالث وهو النسق التعبيرى .

* * *

وفى النموذج الثانى لأَحمد أَمين ترى الكاتبَ يصف الربيعَ أَيضا ، فيصور الحيــاةَ تُقْدِم بقدومِه ؛ فالنَّباتُ يطلُع ، والشجرُ العارى يورِق ويُزْهِر ، والغصونُ

تتمايل ، والطيور تنطلق بالغنَاء ، وكلُّ شيء يمتلئُ حيويةً ، ويجعلُ الربيعَ – بذلك – روحَ الزمانِ وشبابَه .

وقد جعلَ الكاتب الربيعَ مِلءَ العيون بما أَبدعَ من مشاهدَ فاتنة ، وملءَ الأَسماع ؛ بما أَطلق من أَغانى وأَغاريد ، وملءَ النفوسِ بما نشرَ من عطرٍ وعبير .

وأَخيرا يتمنى أَن لو كان الزمان كلُّه ربيعا ؛ لتتحولَ الدنيا كلُّها جمالًا من جماله ، وخيرا من خيره .

وفى هذا النص يُطالعُك إحساسُ الكاتب وقد استثَاره موكبُ الربيع بزينته ، ويطالعك ما ساقه من فِكَرٍ عن الربيعِ : حيوية الطبيعة فى هذا الفصل . الجمال فى كل شيء : فيما تقع عليه العينُ ، وما تسمعه الأُذُن ، وما يَشَمُّه الأنف . أُمنيَّة الكاتبِ فى أَن يكونَ الزمانُ كلُّه ربيعا .

وترى فى النص صورا متعددةً ساقها الكاتب تعبيرًا عن شعوره : « أَقبلتَ فأَقبلتْ معكَ الحياة . إن كان الزمانُ جسدًا فأَنت روحُه . إن كان عُمْرًا فأَنتَ شبابُه . ما أَبدعت من أَلوان . ما صغتَ من جمال . حركَ أَشجانَها . جعلَ منها موسيقا مختلفةَ النغمات » .

كما ترى نَسَقًا خاصًّا فى اختيارِ الأَلفاظ التى تنقُلُ إليك جَوَّ الربيع بفتنتِه ، وفى صياغة العبارةِ التى آثَرَ فيها الكاتب أَن يقفَ من الربيع موقفَ من يخاطبُه ، ويتحدث إليه ، وأَن يسوقَ الجملَ قصيرةً متتابعة ، تنقل إليك بترادفِها ، وجَرْسِها المتلاحق – موكبَ الربيع فى حيويتِه وبهجته .

وربما توهمْتَ من الحديث عن هذه العناصر أَنها منفصلة ، ولكن الحقيقةَ أَنها مترابطة متفاعلة ، فاللغة مرتبطة بالفكر ، والصورُ المعبرة نتاج العاطفة الصادقة بما تستثيره من خيال ، والجرسُ الموسيقى أَثر من آثار الصياغة ، وهو فى الوقت نفسه مرتبط بالعاطفة ، والعبارة وعاءُ ذلك كله .

الخلاصة :

مما تقدم يتبين لك مايأتى :

١ – عناصر الأُسلوب الأَدبى هى :

– الفكرة الممتزجة بالعاطفة .

– الصور.

– النسق التعبيرىُّ بأَلفاظِه وتراكيبِه ، وموسيقاه .

٢ – هذه العناصرُ كلُّها مترابطةٌ ، متقاعلةٌ فى العمل الأَدبىِّ ، وتقسيمُها ليس إِلا لمجرد التوضيح ، وتيسير دراسة النص وتذوقه .

* * *

تمرينات

(١)

لطه حسين فى مولِدِ الرسول :

« شرق الفجر ، وتُبْسطُ الشمسُ رداءها النَّقِيَّ على بطحاء مكةَ ، وما يُحيطُ بها من الجبال ، ويرتفعُ الضُّحىَ ، ويضطربُ الناسُ فى أُمورهم ، وقد قَضَوْا ليلا جاهِلا غافلا ، لم يشعروا فيه بشىءٍ ، كأَن لم يكن فيه أَىُّ شىءٍ ، ولو قد كُشِفَ عنهم الغِطاءُ ، ولو قد أُزيلتْ عن قلوبهم الحجبُ لرأَوا وسَمِعُوا ، ولكن الله قد جعلَ لكل شىءٍ قدرا ، فهو يُظْهر آياته لمن يشاءُ ، ويُخْفى آياته عمن يشاءُ ، وعبدُ المطلب جالسٌ فى الحِجْر ، وحوْلَهُ أَبناؤُه وجماعةٌ من قريش قد أَخذوا فيما كانوا يأْخذون فيه من حديث ، وهو يستمع إليهم بأذنيه ، ويُعرِضُ عنهم بنفسه ، يفكِّر فى فقيده الذى لا يستطيعُ أَن ينساه . وإنه لفى ذلك ، وإذا البشيرُ يُقْبِلُ عليه مسرعًا حتى إذا انتهى إليه حيَّاه ، وقال : لقد وُلِدَ لك غلامٌ ، فهلمَّ فانظُرْ إليه . فلا يسمعُ هذه البشرى حتى يُحسَّ أَن الله قد أَخْلَفَهُ عن فقيده (عبد الله) ، وَرَفَقَ به فى مصابه ، وادَّخرَ له عزاءً عن محْنَته* » .

* * *

(ا) ما نوع الأُسلوب فى هذه القطعة ؟ .

(ب) بم يمتاز هذا الأسلوب من حيث :

- اختيارُ الألفاظِ .
- صياغةُ العبارة .
- الجرسُ الموسيقى .
- استخدام التعبير الحقيقىِّ والخيالى ؟

(*) من كتاب على هامش السيرة .

(حـ) من سمات أُسلوب طه حسين أنه كثيراً ما يعرض المعنى الواحد فى أكثر من جملة واحدة ، وضح ذلك من عبارته .

(٢)

للجاحظ على لسان أَحد القناصين :

« ما أَعْجَبَ أَمرَ الثعلب ! يفصلُ بين الكَلْب والكَلَّاب ، فيحتالُ للكَلَّاب بما يعلمِ أَنه يجوزُ عليه ، ولا يحتالُ مثلَ تلك الحيلةِ للكلب ؛ لأَن الكلبَ لا يَخْفَى عليه الميِّتُ من المغشىِّ عليه ، ولا ينفعُ عنده التماوت . . .

هجمتُ على ثَعْلبٍ فى مضيقٍ ، فإِذا هُوَ ميتٌ منتفخ ، فَصَدَدْتُ عنه ، فلم أَلبثْ أَن لَحِقَتْنِى الكلاب ، فلما أَحسَّ بها وثب كالبرق ، بعد أَن تحَايَدَ عن السنن[١] ، فسأَلتُ عن ذلك ، فإِذا ذلك من فعله معروف ، وهو أَن يَسْتَلقِىَ وقد تركز بالانتفاخ بدنه . . » .

(ا) ما نوع هذا الأُسلوب ؟

(ب) ما أَهمُّ مميزاته ؟

* * *

(٣)

لأَبى القاسم الشابِّى :

يَأَيُّها الشادى المغــردُ ها هنــا ... ثَمِلاً بغبْطةِ قَلْبِــه المسرور

متنقلا بين الخمــائل تالياً ... وَحْىَ الربيــع الساحِرِ المسحور

---

(١) تحايد عن السنن : مال عن وسط الطريق .

غَرِّدْ فى تلك السهولِ زَنَابِــقٌ تَرْنُو إليك بناظــر منظورِ
غَــرِّدْ ولا ترهَبْ يمينِيَ إننى مثلُ الطيورِ بمهجتِى وضميرى

(ا) وضحِ الفكرةَ فى الأَبيات .
(ب) ما اللون الشعوريُّ الذى أوحى إلى الشاعر بهذه الفكرة ؟
(حـ) كيف صورَ الشاعرُ الطائر ؟
(د) ماذا ترى من مميزاتِ الصياغةِ فى الأبيات ؟

(٤)

من مقال كتبه الدكتور يوسف أَبو الحجاج عن النفط

« من شأْنِ النفط أَن يلعبَ دوراً فعالا فى التنميةِ الاقتصادية للوطن العربى ، فى الحاضر والمستقبل ؛ فهو يَعنِى بالنسبة لهذا الوطنِ أَعظمَ مصدَرٍ للطاقة ولرأْس المال ، ومادةٌ لطائفة مهمة منِ الصناعات البتّروكيماوية .

وقد أَدخل النفط كثيراً من التغييرات فى البيئة الجغرافية فى الوطنِ العربى ، ولكنها – مع استثناءات معينة – تَتَّضِحُ فى مظاهرَ استهلاكيةٍ أَكثرَ مما تتضحُ فى مشروعات إنتاجية .

* * *

من مميزات الأُسلوب فى هذه القطعة :
- استخدامُ الأَلفاظِ فى معانيها الحقيقية .
- أَن الأَلفاظ ذاتُ دلالةٍ محدودة .
- استخدامُ بعض الأَلفاظ الاصطلاحية .
- أَنه يهدف قبلَ كلِّ شيءٍ إلى أَداءِ الفكرة .
وضح ذلك من القطعة . .

* * *

(٥)

لابن خفاجَة الأَندلسى فى وصف الجبل :

أَصَخْتُ إِليه وهْو أَخرسُ صامتٌ فحدَّثَنِى ليلَ السُّرَى بالعجائبِ(١)
وقال : أَلاكم كنتُ موطنَ قاتِلٍ وملجأَ أَوَّاه تبتَّلَ تائبِ!(٢)
وكم مرَّ بى مــــن مُدْلِجٍ ومُؤَوِّبٍ وقالَ بظلِّى من مَطِىٍّ ورَاكبِ(٣)
ولاطم مِــن نُكْبِ الرِّيَاحِ معاطِفِى وزاحمَ من خُضْرِ البحارِ غَوارِبى(٤)
فما كانَ إِلا أَن طَوَتْهم يدُ الـــردى وطارَتْ بهم ريحُ النَّوَى والنوائب(٥)

* * *

تحدث عن نوعِ الأُسلوب وعناصرِه فى الأَبيات السابقة .

* * *

---

(١) أصخت : أصغيت .

(٢) أواه : تائب . تبتل : انقطع للعبادة .

(٣) المدلج : السائر فى أول الليل . والمؤوب السائر فى آخره . قال : قضى وقت القيلولة (الظهيرة) .

(٤) نكب الرياح : نكب جمع نكباء ، وهى الريح تنحرف عن الطريق المعهود . غواربى : المراد أعالى الجبل .

(٥) الردى : الموت .

الخبر والإنشاء

١ – الخبرُ وأَغراضُهُ البلاغية

(ا)

نهضت الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ، وسارت سيرا حثيثاً في طريق التقدم العلمى .

– أثرت الإذاعة المرئية فى المجتمع وعاداته وتقاليده وقِيَمِه .
– تسيرُ الكشوفُ النفطية فى الوطنِ العربىِّ بخُطاً واسعة .
– تصدقُ الأرصاد الجوية فى كثير من الأحيان .

* * *

(ب)

من رسالة طيار إلى أُمه وهو يتأَهب للقيام بغارةٍ جوية خطرة :

« أُماه ! لست أَستشعرُ نذيرَ الخطر ، ولكن الحوادثَ تجرى سراعا ، وقد أَوصيت بأَن يُرسَل إليك كتابى هذا إذا قُدِّرَ لى أَلا أَعودَ من غارةٍ جوية ، سأَقومُ بها وشيكا .

وأُحبُّ أَن تعيشى بالأَمل فى عودتى ، فإذا لم أَعُدْ فليس أَمامك إلا أَن تَرُوضِى نفسَكِ على الواقع . وعزاؤُكِ عن فقدى أَن تعلمى أَن قِسْطى من هذه الحرب كان من أَروعِ الأَعمال ، وأَجلِّها شأْنا ، فلم أَدَّخِرْ جهدًا فى سبيل النهوضِ بالواجب ، ولا يستطيع رجلٌ أَن يقدِّمَ أَكثر من ذلك ، وليس فى عِدَادِ الرجالِ من يفعلُ أَقلَّ من ذلك .

إنك تُخْلِفِينَ ظنى إن لم تحاولى التَّذَرُّعَ بالصبر والتغلُّبَ على العاطفة ، وطالما

أُعْجِبْتُ بشجاعتِك الرائعة فى مواجهَةِ المحن ، وإذا متُّ فلن يفهم أَحدٌ أن جهادَك قد ضاع سُدًى ، بل يفهم أَن تضحيَتَكِ تعادلُ تضحيتى عظمةً وجلالا ؛ فإن الذين يخدمون الوطنَ لا يليق بهم أَن ينتظروا المكافأَةَ والجزاء ، وإننا نَحْقِر أَنفُسَنا ، ونهين كرامَتَنَا إذا حسبْنَا بلادنا ليست إلا موطناً للنوم والطعام .

لقد تأَهبتُ للموت غير آسف إلا على أَمر واحد ، هو أَنى سأُحْرَمُ وقْفَ حياتى على إسعادِك بوجودِى معك ، وقربى منك فى سنواتِك الأَخيرة ، ولكنك ستعيشينَ فى سلَام وحرية ، اشتركت فى إقرارهما بنفسى ؛ ولهذا لم تَذْهَبْ حياتِى هباءً .

* * *

التوضيح :

تأَمل فى أَمثلة المجموعة (١) تجد أَن كلَّ مثالٍ منها خبَرٌ يلقيه القائِل إلى السامع ؛ فالمثالُ الأَول خبر يفيد نهضة بلادنا ، وتقدمها العلمى ، والمثال الثانى خبَرٌ يتضمن تأْثير الإذاعة المرئية فى المجتمع ، والمثالُ الثالثُ خبر عن سيرِ الكشوفِ النفطية بخطاً واسعة ، والمثال الرابع يخبر عن صدقِ الأَرصاد الجويةِ فى كثيرٍ من الأَحيان .

وهكذا تجدُ أَن الخبَرَ يُسَاق لإفادة القارئُ والسامع مضمونَه الذى يتَّصلُ بناحيةٍ من النواحى العلمية أو الاجتماعية ، أَو الاقتصادية أَو الظواهر والأَحداث اليومية . . أَوغيرها .

وأَنت تقرأُ وتسمعُ كلَّ يومٍ كثيرا من الأخبار فى الصحفِ أو الإذاعةِ المرئيةِ والمسموعةِ أَوغير ذلك من وسائل الإعلام .

وكلُّ خبرٍ يحتمل بطبيعته أَن يكون صادقًا أَو غير صادق ، فإن كان مطابقاً للواقع فهو صادق ، وإن خالفه فهو غيرُ صادق . ومثل هذه الأَخبار العادية لا تدخلُ فى نطاق الأَدب ، ولا مكانَ لها فى الدراسة البلاغية .

* * *

انتقل إلى النموذجِ (ب) تجد جزءًا من رسالةٍ كتبها طيارٌ محاربٌ إلى أمه وهويتأَهبُ للقيامِ بغارةٍ جوية خَطِرَة .

وقد بدأَ الرسالة بهذَا الخبر : « لست أَستشعرُ نذيرَ الخطرِ ، ولكن الحوادث تجرى سراعا . . . ولعلك تلحظُ أَنه لم يُرِدْ أَن يخبرَ أُمه بأَنه لا يحسُّ الخطرَ من أَحداث الحرب وتتابعها ، بل إن له غرضا آخر يريد أَن يصلَ إليه من وراءِ هذا الخبر ، هو أَن يبعثَ فى نفسها السكينة والرضا إذا قدر له ألا يعود .

وتأَمل قوله : « أُحب أَن تعيشى بالأَمل فى عودتى . . على الواقع » .

تجد أَنه لم يَقْصِدْ مجرد إفادتها هذا الخبر بل إن وراءَ ذلك برًّا بها ، يتجلى فى حرصِه على أَن تحيَا مشرقةَ النفس بالأَمل ، غير مكتئبةٍ ولا حزينة .

وانظر قوله : (وعزاؤُك عن فقدى أَن تعلمى أَن قسطى من هذه الحربِ كان من أَروعِ الأَعمال . . .) تجد خبرا تضمن الدلالة عَلى شجاعتِه ، وعدمِ مبالاته بهذه النهاية المرهوبة ، وافتخَارَه بما أَبدى من بطولةٍ فى الحرب ، كما تضمن إيحاءً إلى قلبِ الأُم بأَنه سيجد من ذكريات البطولة أَقوى زادٍ للعزاءِ .

وفى قوله : (إنك تُخْلفِينَ ظنى إن لم تحاولى التذرُّعَ بالصبر والتغلُّبَ على العاطفة . .) تَلْحَظُ أَنه يحاولَ الإشادَةَ بحكمتِها ، وجلَدِها ، وتعظيمَ تَضْحِيَتِها ، كما يُشيد بالوطنية الصادقةِ ، وما تمليه على أَبناءِ الوطن من بذلٍ وتضحيةٍ .

فإذا انتقلتَ إلى الفقرةِ الأَخيرةِ رأَيتَ عدةَ أَخبار تحملُ مشاعر الحُنُوِّ والعطفِ على أُمٍّ تزحف بها السنُّ فى آخرِ مراحل حياتِها إلى الوهن والضعف ، كما تحمل تهدئة نفسها وتذكيرها بما قدَّمَ من تضحيةٍ لإقرار الحرية والسلام ؛ لتسعدَ بهما مع سائر الناس .

وهكذا ترى أَن الأَخبارَ فى هذه الرسالة لا يُقْصَدَ بها مجرد إفادةِ مضمونها ، بل إنها تؤَدِّى معانىَ ودلالاتٍ أُخرى إيحائيةً ضمنيةً ، تصدرُ عن الأَحاسيسِ والانفعالات التى تضطرب بين جوانح الابن وهو موزع النفس بين واقعِه ، وعاطفتِه نحو أُمه . ومثلُ هذه الأَخبار تدخل فى الإطار الأَدبى الذى تُعْنَى به الدراسةُ البلاغية .

* * *

وإليك طائفة أُخرى من النماذجِ ، تَلْحَظُ منها أَظهرَ الأَغراضِ البلاغيةِ للخبر :

١ – قال ابن الرومى :

وأُولادنا مثـل الجوارِحِ أَيُّهـــا فقدناه كانَ الفاجعَ البَيِّنَ الفقدِ
لكلٍّ مكانٌ لا يَسُدُّ اختــلالَه مكانُ أَخيه من جَزُوعٍ ولا جلْد

٢ – وقال البحترىُّ يخاطب الفتح بن خاقان :

يخوِّفُنِى من سُوءِ رأْيكَ معشرٌ ولا خوفَ إلا أَن تَجُورَ وتَظْلِمَا
أُعيذك أَن أَخشاكَ من غير حادثٍ تبَيَّنَ أَو جُرْمٍ إِليكَ تَقَدَّمَا

٣ – ولإيليَا أبى ماضى :

إن شرَّ الجناةِ فى الأَرض نفسٌ تتوقَّى قَبْلَ الرحيلِ الرحيلا
وتَرَى الشوكَ فى الورودِ وتَعْمَـــى أَن تَرى فوقَها النَّدَى إكليلا

٤ – ومن خطبةٍ للحجاجِ بن يوسف :

« من أَعياهُ داؤُه فعندى دواؤُه ، ومن استطالَ أَجَلَهُ فعلىَّ أَن أُعجِّلَه ، ومن ثَقُلَ عليه رأْسه وضعت عنه ثِقَلَه »

٥ – وقال ابن زيدون :

تكاد حينَ تناجيكم ضمائرُنـــا يقضى علينا الأَسى لولا تأَسِّينا
حالَتْ لفقدكمُ أَيامُنا ، فَغَدَتْ سُودًا ، وكانت بكم بيضًا ليالينا

٦ – وقال ابن الرومى :

حملتَ أَنفًا يـــراه الناس كلُّهُمُ من أَلفِ ميلٍ عِيانًا لا بمقياس
لوشئتَ كسبا به صادفتَ مكتَسَبًا أَوانتصاراً مضى كالسيفِ والفاس

* * *

١ – ارجع النظرَ فى هذه النماذج تجد أَن الشاعرَ فى البيتين الأَولين لم يُرِد مجردَ الإِخبار بأَن أَولاد الإِنسان كجوارحه ، إِذا فُقِدَ أىٌّ منها كان فقدُه موجعاً أَليما ، وأَن لكلٍّ مكانَه فى قلب الأَب سواءٌ أَكان صبورًا أَم جزوعا ، بل إِن غرضَه من هذا هوالتعبيرعن حزنه وأساه لفقد ابنه .

٢ – والبحترىُّ لا يريدُ فى خطابه للوزير الفتحِ بن خاقانَ ظاهِرَ الخبر ، وهو « أَنه لا يخشى سوءَ رأيه ، وإِنما يخشى الجورَ بغير سبب أَوجريمة »،ولكن الغرضَ الذى يقصِدُهُ هو استعطافُ قلب الوزير واستمالته إِلى العفوعنه .

٣ – والخبرُ فى بيتى إيليا أَبى ماضى لا يُقْصَدُ به ظاهرُه المفهوم من المعانى اللغوية للأَلفاظ والتراكيب ، بل يراد به نصحُ أُولئك المتشائمين؛كى يعدلوا عن تشاؤمهم الذى يُعميهم عن مباهِج الحياة ومُتَعِها ، ويُجَسِّمُ فى أَعينهم ما فيها من شرورٍ ومخاوف .

٤ – والخبر فى كلام الحجاج – كما ترى – يُرادُ به التهديدُ والوعيد .

٥ – وانظر إِلى بيتَي ابن زيدون وهما من قصيدةٍ بعث بها إِلى محبوبته ولأَدةَ بنتِ المستكفى – تجد أَن الشاعرَ لا يريد ظاهرَ الخبر ، وهو : « أَن الأَسى يكاد يقضى عليه إِذا تمثَّلهَا لولا أَنه يتجلَّدُ ويتصبر ، وأَن أَيامه بعدها قد صارت كئيبةً قاتمة » ، ولكنه يُضَمِّن هذا الخبرَ التحسُّرَ على ذكريات حلوة مضت ، وعهدٍ هنىءٍ ولَّى وراح .

٦ – أَما الصورةُ الهزليةُ الساخرةُ فى البيتين الأَخيرين لابن الرومى فلا يرادُ بها مجرد تصويرِ ذلك الأَنف الكبيرِ العجيب الذى يُرَى من بُعْدٍ كبير بالعين المجردة ، والذى يصلح أَن يكون أَداةً للكسب والحرب ، ولكن المقصود التهكُّم بصاحِبِ هذا الأَنف والسخرية منه .

الخلاصة :

١ – الخبرُ قولٌ يرادُ به إِفادةُ السامع أَوالقارىءِ مضمونه ، وهو فى ذاته يحتمِلُ أَن يكون صادقاً وغيرصادق ، فيكون صادقاً إذا طابق الواقع ، وغيرصادق إذا خالفه .

٢ – من الخبر ما هو عاديٌّ لا يُقْصَدُ به غيرُ المعنى الذى تُؤَديه الألفاظ والتراكيب بدلالاتها اللغوية ، وهذا اللون من الخبر لا يدخل فى نطاق الأَدبِ ولا فى إطار الدراسة البلاغية .

ومن الخبرِ ما هو أَدبى يُوحى بشعورِ قائله ، ويومئُ بدلالته إلى حالة نفسية معينة يُحسُّ بها ، كإظهارِ الحزن والأَلم ، أَو الاستعطافِ والاسترحام ، أَو النصح والإرشاد ، أَو التهديد والوعيد ، أَو التحسر على شىءٍ محبوب فات ، أَو التهكم والسخرية . . . أَو غير ذلك من الدلالات التى تُفْهَمُ من سياقِ الكلام ومن وراءِ سطوره ، والتى تُسَمَّى الأَغراضَ البلاغية للخبر .

٣ – سرُّ جمال الخبر الأَدبى أَنه يتصلُ بوجدان الأَديب ، ويكتسب به الكلام كثيراً من المعانى والدلالات الشعورية الزائدةِ على المعنى اللغوى .

* * *

٢ – الإنشاء وأغراضه البلاغية

مر بك أَن الخبرَ هو ما ينقلُه القائلُ إلى السامع ؛ ليفيدَه مضمونَه ، وأَنه فى ذاته يحتملُ أَن يكونَ صادقًا إذا طابق الواقع ، وغيرَ صادق إذا لم يطابقه .

أَما الإنشاءُ فأُسلوبٌ لا ينقل خبرا ، ولا يحتملُ الصدق أَو عدمَ الصدق ، وإنما يُنْشئُ به قائله شيئاً ، كأَن يأمرَ بأَمرٍ ما ، أَو ينهى عن شيءٍ ما ، وكأَن يستفهمَ ، أَو ينادىَ ، أَو يتعجب ، مثل :

عامِلِ الناسَ بما تُحبُّ أَن يعاملوك به .

لا تُؤَخرْ عمل اليومِ إلى الغد .

هل زرتَ آثار لبدة ؟ .

يا بنى . نظم عمَلك .

ما أَجمل الربيعَ فى ليبيا ! .

ومن الإنشاءِ ما هو عادىٌّ ، لا يحمل أكثرَ من معناه اللغوىِّ ، كما فى الأَمثلة السابقة ، ومنه ما هو أَدبى ، كالإنشاءِ فى الأَبيات الآتية ، وهى لإبراهيم ناجى :

رفرَف القلبُ بجنبى كالذبيـــحْ ... وأَنا أَهتفُ : يَا قلبِى اتَّئِـــدْ
فيجيبُ الدمعُ والماضى الجـــريحْ ... لِمَ عُدْنَــا ؟ ليت أَنا لم نَعُــدْ

* * *

لِمَ عُدْنا ؟ أَو لم نَطْـوِ الغـــرام ؟ ... وفرغْنَـــا من حنينٍ وأَلم
ورَضِينَـــا بسكونٍ وسلام ... وانتهينـــا لفراغٍ كالعـــدم

* * *

آه مما صنع الدهـــــر بنـــا ... أَو هذا الطللُ العابسُ أَنتا ؟
والخيالُ المطرقُ الرأْسِ أَنــا ؟ ... شَدَّ ما بتنا على الضَّنْكِ وبِتَّا !

* * *

فقد ساق الشاعرُ هذه الأَبياتَ فى موقفٍ عاطفىٍّ أَثارَ أَساه ، ويدورُ حوارٌ بينه وبين قلبه ، ودمعِهِ ، وماضيه الجريح : يرفرف قلبه سريعاً مضطرباً كرفرفةِ المــذبوح ، فيناديه : « يا قلبى اتئد » ، وبثورُعليه دمعُه وماضيه الجريح ، فيسأَلانه : « لِمَ عدنا ؟ أَوَ لم نطو الغرام ؟ وفرغنا من حنينِ الحب وآلامه ، وانتهينا إلى يأْسٍ فيه سكونٌ كسكونِ العدم » .

ويتأَوَّهُ الشاعرُ وقد بداله أَنه خيالٌ مطرقٌ حزينٌ أَمام دارٍ صارَت فى ناظره طَلَلاً خَرِباً ، ويقول : « أَو هذا الطللُ العابسُ أَنت ؟ والخيالُ المطرقُ أَنا ؟ » ،

وإذا تأملت رأيت :

أن الأَمرَ فى قوله : « اتئد » ليس لمجرد الطلب ؛ لأَن القلب ليس عاقلا يؤْمَرُ فَيَسْتَجيب ، وإنما هو أَمر يحمل أمنيةَ الشاعر فى أَن يُهَدِّئَ قلبَه من ثورته ووجيبه ، فهذا الأمر للتمنى .

وأَن الاستفهامَ فى قولِهِ : لِمَ عدنا ؟ ليس على حقيقتِه ؛ لأَن الدمعَ والماضى الجريحَ لا ينتظرانِ عليه جواباً ، وإنما هو استفهام يحملُ مشاعرَ العتبِ المُرِّ على الشاعر ؛ لما وقع منه من خطأً فى هذه العودة المؤلمة .

وأَن الاستفهامَ فى قوله : « أَوَ لم نطو الغرام ؟ » يحملُ معنى التقرير ؛ إِذْ يحاولُ به الدمعُ والماضى الجريحُ أَن ينتزعا من الشاعرِ اعترافًا بخطئه فى عودته ، وتمتزجُ بذلك مشاعر الأَسى والأَلم .

فإذا انتهيتَ إِلى الاستفهامين الأَخيرين : « أَو هذا الطللُ العابسُ أَنت ؟ والخيــالُ المطرق أَنا ؟ » رأَيتَ أَن الكاتب لا ينتظرُ من الطللِ ولا من نفسه جواباً ، وإنما يُحَمِّلُ هذين الاستفهامين الإِحساسَ بالحسرةِ والندم ؛ لما انتهى إليه أَمر الدار ، وما صارت إِليه حالتُه » .

ومثلُ هذه المشاعرِ يحملُها الأُسلوب التعجبىُّ فى قوله : « شدَّ ما بتنا على الضَّنْك وبتا ! » ، وهكذا ترى أَن الإِنشاء الأَدبى لا يُقْصَدُ به معناه اللغوىُّ ، وإنما يُقْصَدُ به ما وراء هذا المعنى من دلالاتٍ وإيحاءات .

الخلاصة :

ومما تقدم يتبين :

١ – الإنشاءُ هو ما ينشئُ به قائلُهُ شيئاً من أَمرٍ ، أَو نهيٍ ، أَو استفهام ، أَونداء ، أَوتعجبٍ ، وأَن منه ما هوعادىٌّ ، وما هوأَدبىٌّ .

٢ – الإنشاءُ الأَدبىُّ لا يحملُ مجرد معناه اللغوىِّ ، ولكنه يوحى بمعانٍ ودِلالات شعورية أُخرى تتجاوزُمعناه اللغوى .

٣ – أَن هذه المعانِىَ والإِيحاءات مرجعها :

(ا) الشعور المسيطرُ على الأَديب فى الموقف الذى يساقُ فيه هذا الإِنشاءُ .

(ب) الجوُّالذى يُلْقَى فيه الكلام ، وحالُ من يُلْقَى إِليه .

تمرينات

(١)

لأبي جعفر المنصور :

«أيها الناسُ . لا تخرُجوا من أُنْسِ الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تُسِرُّوا غِشَّ الأَئِمَّة ؛ فإنه لم يُسِرَّ أَحدٌ قطُّ مُنْكَرَةً إلا ظهرت فى آثار يده أَو فلتاتِ لسانهِ ، وأَبداها اللهُ لإمامه لإعزاز دينه ، وإعلاءِ حقه .

إنا لن نبخَسَكم[١] حقوقَكم ، ولن نبخسَ الدينَ حقَّه عليكم . إنه من نازَعنَا عُروةَ هذا القميصِ أَجزرناهُ خبيءَ هذا الغمد[٢] » .

* * *

(ا) عين الخبرَ والإنشاءَ فى النصِّ السابق .

(ب) بين الغرضَ البلاغيَّ من الخبر والإنشاءِ فيه .

(ج) لماذا جمعَ المنصور بين : (لن نبخسَكم حقوقَكمُ) ، و(لن نبخسَ الدينَ حقَّه عليكم) ؟ .

(٢)

لمحمود حسن إسماعيل على لسان الشرق :

أَنا الحُرُّ يدرِى كلُّ حرٍّ مــــواقفى ... ويشهدُ لى التاريخُ فى كل صفحة
أنا العزةُ الكبرى ، أَنَا الشرق فليَعُدْ ... إلىَّ كيانِى بعد طولِ التَّفَتُّت

---

(١) لن نبخسكم : لن ننقصكم .

(٢) أجزرناه خبيء هذا الغمد : المراد ذبحناه بالسيف .

(ا) ما الغرضُ من الخبرِ فى البيتين ؟
(ب) وما القرائنُ التى توحى إليك بهذا الغرض ؟
(حـ) عين الإنشاء فى البيت الأَخير ، وبين الغرض منه .
(د) ماذا ترى من جمالٍ فى الخبرِ والإنشاءِ فى هذين البيتين ؟

(٣)

قال المتنبى :

ومراد النفوسِ أَصغرُ من أَن نتعادَى فيه وأَن نتفانى
غير أَن الفتى يلاقى المنايا كالحاتٍ ولا يلاقى الهوانَا

(ا) اشرح هذين البيتين .
(ب) بين العلاقةَ بينهما .
(حـ) ما الغرضُ الأَدبى من الخبرِ فيهما ؟ وما سرُّ جماله ؟

* * *

قال المتنبى :

أَقمتُ بأَرضِ مصرَ فلا ورائى تَخُبُّ بى الركابُ ولا أمامى
وَملَّنِيَ الفِراشُ وكان جَنْبِى يَمَلُّ لقاءه فى كلِّ عام
قليلٌ عائدِى ، سَقِمٌ فؤَادِى كثيرٌ حاسِدى ، صعبٌ مرامِى

(ا) كيف صورتِ الأبيات حال الشاعر ؟
(ب) ما غرضُه البلاغىُّ منها ؟
(حـ) ما قيمةُ قولِهِ فى البيت الثانى : «كان جنبى يملُّ لقاءه فى كل عام » ؟

(١) تخب : الخبَب نوع من السير .

(٤)

فيما يلى أبياتٌ للبحترىِّ فى مصرعِ الخليفة المتوكلِ :

تَخَفَّى لـــه مغتالُـــه تحتَ غرَّةٍ   وأولى لمن يغتـــاله لـــو يُجَاهِرُه
صريعٌ تقاضاهُ الليالى حُشَاشَةً(١)   يجود بهـــا والموت حُمْرٌ أظافره
أدافعُ عنـــه باليدين ولم يكنْ   لِيَثْنى الأعادى أعزلٌ(٢) الليل حاسرُه
ولوكانَ سيفى ساعةَ الفتكِ فى يدى   درى الفاتكُ العجلانُ كيفَ أساوِرُه

تحمل الأبياتُ مشاعرَ شتى :

(ا) ما هذه المشاعر؟ وما الغرضُ البلاغىُّ من الخبر فى البيتِ الأول ؟

(ب) كيف صور البيتان الثانى والثالث مصرعَ المتوكلِ ، وموقفَ الشاعر منه ؟ .

(جـ) ما الهدفُ من الخبرِ فى البيتِ الرابع ؟

* * *

---

(١) الحشاشة : بقية الروح .

(٢) الأعزل : من لا يحمل سلاحا .

من أساليب الإنشاء

١ – الاستفهام وأغراضه البلاغية

١ – قال تعالى :

« يأَيها الذين آمنوا هل أَدُلُّكُمْ على تِجارةٍ تُنْجِيكم من عذاب أليم ؟ تُؤْمنون باللهِ ورسُولِهِ ، وتُجَاهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ بأَموالكم وأنفسِكم ، ذَلِكُمْ خيرٌ لكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون »(١).

٢ – وقال سبحانه :

« سيقولُ لك المخلَّفُون من الأعرابِ شَغَلَتْنَا أموالُنا وأَهْلُونَا فاستغفِرْ لنا ، يقولون بأَلسنتِهم ما ليسَ فى قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من اللهِ شيئًا إن أرادَ بكم ضرًّا أو أراد بكم نَفْعًا ؟ بل كانَ اللهُ بما تعملونَ خبيرًا(٢) » .

٣ – لعلى محمود طه فى حملة طارق بن زياد :

قال بعد تساؤل فى مطلع قصيدته :

لابل سفين لُحن تحت لـــواء — لمن السفين تُرى ؟ وأى لواء ؟

ومن الفتى الجبار تحت شراعهـا — متربصا بالموج والأنـــواء ؟

٤ – لشوقى وهو فى منفاه بالأندلسِ :

يا بنةَ اليَمِّ ما أبـــوكِ بَخِيـــلٌ — مالـــه مولعًا بمنـــعٍ وحَبْسِ ؟

أحـــرامٌ على بلابِلِه الـــدو — حُ حلالٌ للطيرِ من كلِّ جِنْسِ ؟

٥ – ولأبى تمام :

أين الـرواية ؟ بل أين النجُوم ومـــا — صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كَذِبِ ؟

تَخَـرُّصًا وأحـاديثـــاً مُلَفَّقَـــةً — ليست بنبعٍ إذا عُـدَّتْ ولا غَـرَب

---

(١) سورة الصف . الآيتان (١٠ ، ١١) .

(٢) سورة الفتح . الآية (١) .

٦ – وله :

أمِن بَعْـدِ طَىِّ الحـادثاتِ محمدًا يكونُ لأثوابِ النَّـدَى أَبداً نَشْرُ ؟
إذا شَجَراتُ العُرْف جُذَّتْ أصولُهـا ففى أَى فرعٍ يوجدُ الورقُ النَّضْرُ ؟

٧ – ولإبراهيم ناجى :

سيانِ ما أجهلُ أَو أَعلمُ من غامضِ الليلِ ولُغْزِ النهار
سيستمرُّ المسرح الأعظم روايةٌ طالت ، وأين السَّتَار ؟[1]

التوضيح :

تأمل النماذجَ المتقدمةَ ، وقِفْ عند الاستفهامِ في كُلٍّ منها، وحاول أن تعرف دلالته وما يوحى به .

فى النصِّ القرآنىِّ الأولِ ترى سؤالا موجها إلى المؤْمنين : « هل أدلُّكُم على تجارةٍ تنجيكم من عذابٍ أليم ؟ » وترى الجوابَ عن هذا السؤالِ يجعلُ مجالَ هذه التجارةِ فى الإيمان باللهِ ورسولِهِ ، والجهادِ فى سبيل الله بالأموال والأنفس .

فما المقصودُ بهذا الاستفهام ؟ إنه للتشويق ، وإثارة الانتباه ، وواضحٌ فيه أنه يُشْرِكُ المخاطبينَ فى التفكيرِ ، وفى التَّطَلُّعِ إلى الجواب ؛ فى ذلك تقديرٌ لهم ، وبه تستقرُّ الفكرةُ فى نفوسِهم أكثر مما تستقرُّ بالخبرِ العادىِّ ، كأَن يقالَ : « إن الإيمانَ والجهادَ خيرُ تجارة » .

وفى الآيةِ الثانيةِ ترى المنافقين الذين تخلَّفُوا عن الخروجِ إلى الجهادِ مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلمَ يعتذِرونَ بأَن أموالهم وأهالِيَهم شغلتْهم عنه ، ويلتمسون منه أن يستغفرَ لهم ، والواقعُ أنهم حاقدونَ على الدعوةِ الإسلامية ، يتظاهرون بتأْييدِها ، وهم فى أعماق قلوبِهم لا يريدونَ لها ظهوراً ولا انتصارًا .

وفى الردِّ على ما زَعَموا يَأمرُ الله نبيَّه عليه السلامُ أن يقول لهم : فَمَن يملكُ لكم من الله شيئا إن أرادَ بكم ضَرًّا أو أراد بكم نَفْعًا ؟ فماذا يعنى هذا الاستفهامُ ؟ إن المرادَ به أن أحدًا غيرَ الله تعالى لا يملكُ من أمرهم شيئًا ؛ ففى الاستفهام معنى « النفى » ، ومع النفى تهديدٌ بالعذاب ، كما أنه يحمِلُ المنافقينَ على أن يتنبَّهوا ليصلوا إلى هذه الحقيقةِ الأليمةِ بأَنفسهم .

(١) الموجود فى كتب اللغة : السِّتارة .

وفى النموذج الثالث يتحدث على محمود طه مبهوراً ببطولة طارق ، وعظمة أسطوله ، وجيشه ، ولوائه ؛ فنى هذا الاستفهام : لمن السفين تُرى ؟ وأى لواء ؟

– وكذلك فى الاستفهام الذى يليه – تجد كل مظاهر التعظيم بما وراءه من مشاعر الإعجاب والإجلال .

وفى النموذج الرابع ترى « شوق » فى منفاه بالأندلس ، يحِنُّ للعودة إلى وطنِه الحبيبِ مصر ، ويسمعُ صوتَ السفينة فيستبد به هذا الحنينُ ، وهو هنا يتوجهُ إلى السفينة ابنة البحر ، التى عُرِفَ أَبوها بِجودِهِ ، ويسأَلُ : ما للبحر مولعاً بمنعٍ وحَبْسٍ ؟ أحرامٌ على بلابل مصرَ دوحاتُها حلالٌ لغيرها من الطير ؟ ومن اليسيرِ أن تتبينَ فى كلٍّ من الاستفهامين مشاعِرَ الدَّهْشَة ، والتعجبِ ، مع إنكار هذا الموقفِ الغريب .

ويزيدُ من وضوحِ هذه المشاعرِ والدلالات فى السؤال الأول أن الشاعرَ يعدِلُ عن خطابِ البحرِ ؛ لأنه ينكرُ عليه موقفه ، ويوجهُ الخطاب إلى السفينةِ لتَدْهَشَ معه ، وتُنْكِرَ معه ، كما يزيد من وضوحِها السؤالُ الثانى ، وهذه الموازنةُ بين بلابل مصرَ وطير غيرها .

وفى النموذجِ الخامسِ لأبى تمامٍ ترى الشاعرَ يتحدثُ عن كذبِ المنجمين ، الذين أشارُوا على المعتصمِ أن يُرْجِئَ الخروجَ إلى عَمُّورِيَّةَ لحربِ الروم ؛ لأن الكواكب أنبأتهم بذلك ؛ فقد خالفهم المعتصم ، وخرجَ ، فانتصرَ نصراً مبينا .

وفى هذا الحديثِ يتساءلُ أبو تمام : أين الروايةُ ؟ أين النجوُم ؟ وهو لا يريُد أن يدُلَّهُ أحدٌ على مكانِ الرواية أو النجوم ، وإنما هما استفهامان يحملان مشاعِرَ التهكم والسخريةِ بالمنجمين ، ويدفعان السامعَ أن يشاركَ الشاعِرَ فى التهكم بهم ، والسخرية منهم .

وفى النموذجِ السادس تقفُ أمامَ بيتين لأبى تمام أيضاً ، يتحدثُ فيهما عن محمدِ بن حُمَيْدٍ الطوسى ، الذى قُتِلَ فى الحربِ قِتْلَةَ بَطَلٍ شجاع ، ويتساءلُ : أمِن بعدِ مقتلِ هذا الرجلِ الجوادِ يحيا النَّدَى ؟ وفى أى فرعٍ ينبت الورقُ النَّضْرُ إذا كانتْ شَجَراتُ الجودِ قد قُطِعتْ من أصولِها ؟ ولكنه لا ينتظر جواباً ، وإنما يُحَمِّلُ هذين الاستفهامين مشاعرَ « الأسى والحسرة »

على هذا الرجلِ الذى ماتَ الندى بموتِه . ويُعْجِبُكَ فى استفهاميهِ أنه يستثير بهما السامع إلى مشاركته فى أساه وحسرتهِ ، عن طريقِ دليلٍ حِسى واضح ، هوشجراتُ الجودِ ، التى جُذَّتْ أصولُها ، وجفت فروعُها ، فأَصبح عسيرًا أَن ينبتَ بها الورقُ الناضر.

وفى النموذجِ الأخير لناجى ترى الشاعرَ فى حيرةٍ بين ما يجرى على مسرحِ الحياةِ من أحداث يتعاقبُ بها الليلُ والنهارُ فى فصولٍ تتتابعُ ولا تتناهى ، ويختِمُ بيتيه بقوله « أَين الستار ؟ » ، ومن اليسير أن تُحسّ أنه استفهامٌ يحمِلُ معنى الاستبعاد بما وراءه من حيرةٍ وتعجب ، وأنه أجمل من أن تعرضَ الفكرةُ فى صورةٍ خبرية ، كأَن يقالَ « الستارُ بعيد » ؛ لما فى الاستفهامِ من استثارةٍ ومشاركة لا تتأَتّى بمثل هذا الخبر .

الخلاصة :

مما تقدم يتبين :

١ – أن الاستفهامَ الأدبيَّ لا يُطْلَبُ به جواب ، وإنما يحمل من المشاعرِ والدلالات مايخرجُ به إلى أغراضٍ متعددة ، كالتشويقِ وإثارةِ الانتباه ، والنفى ، والتعظيمِ ، والتعجبِ ، والإنكار ، والتهكم والسخرية ، والتحسُّرِ ، والاستبعادِ ، وغيرِها من المعانى والدلالاتِ التى تُفْهَمُ من القرائن .

٢ – أن دلالاتِ الاستفهامِ والمشاعرَ التى يُوحى بها تَتَّضِحُ من خلال تَعَرُّفِ الموقف الذى يُسَاقُ فيه ، وحالِ المخاطبِ به ، والجوِّ الشعوريِّ المسيطرِ على هذا الموقفِ .

٣ – من النواحِي الجماليةِ التى تبدُو فى الاستفهامِ الأدبيِّ : أنه يعطى الكلامَ حيويةً ، ويزيدُ من الإقناعِ والتأْثير به .

وذلك لما فيه من إثارةٍ للسامع وجذب لانتباهه ، ومن إشراكه فى التفكيرِ ؛ ليصلَ بنفسِه إلى الجواب دون أن يُمْلَى عليه .

* * *

تمرينات

(١)

قال تعالى :

« إِنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِم قالُوا : فيم كنتُم ؟ قالوا : كنا مستضعفينَ فى الأَرض . قالوا : أَلم تكن أرضُ اللهِ واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأُولئك مأْواهُمْ جَهَنَّمُ وساءَتْ مصيرًا [1] » .

(ا) فى الآية دعوةٌ إلى عدم الانقيادِ للمستكبرين المُضِلِّين . من أين تفهمُ ذلك فيها ؟ .

(ب) فى الآية الكريمة أسلوبان من أساليب الاستفهام . وضحهما .

(ج) ما الغرضُ البلاغىُّ من الاستفهام الأول ؟ وما الغرضُ البلاغىُّ من الاستفهامِ الثانى ؟

(٢)

لعروةَ بن الورد :

أتهزأُ منى أن سمِنتَ وأن ترَى ... علىَّ شحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ ؟
أقسم جسمى فى جسومٍ كثيرةٍ ... وأحسو قَرَاحَ المـــاءِ والماءُ باردُ

(ا) بماذا يعللُ الشاعرُ شحوبَه وهزاله ؟

(ب) ماذا يُقْصَدُ من الاستفهام فى البيت الأَول ؟

(ج) أَيُّهما أَجملُ فى هذا المقام : استخدامُ أُسلوبِ الاستفهام أم استخدام الأسلوب الخبرىِّ الذى يؤدِّى المعنى ؟ ولماذا ؟ .

---

(١) سورة النساء . (الآية ٩٧) .

(٣)

لأبي فِراس :

بِمَنْ يثقُ الإنسانُ فيما ينوبُـــــه ؟ ومن أين للحرِّ الكريم صِحَابُ ؟

(ا) اشرح البيتَ بعبارتِك محتفظًا بمعناه الأدبي .

(ب) ما الغرض البلاغيُّ من الاستفهامِ فيه ؟ وما سرُّ جماله ؟

(٤)

يقول أَبو العَلاءِ المعرِّي :

وهوَّنتُ الخطــوبَ على حتى كأَنى صرتُ أمنَحُهـــا الوِدَادا
أأُنْكِرُها ومنْبِتُهـــا فــؤادى ؟ وكيف تُنكِّرُ الأرضُ القَتَادا[١] ؟
فأَىُّ الناسِ أجعَلُـــه صَدِيقًا ؟ وأى الأرضِ أسلكُه ارتيـادا ؟
ولـــو أن النجــومَ لدىَّ مــالٌ نفت كفاىَ أكثَرَهــا انتقادَا

(ا) ما الصورةُ التى ترسُمُها الأبياتُ ؟

(ب) عين كلَّ أسلوبٍ استفهاميٍّ فيها ، وبين الغرض البلاغيَّ منه .

(ج) ما العلاقةُ بين شَطرىِ البيتِ الثانى ؟ .

(٥)

لابن عبدون الأندلسيِّ فى بنى المظفَّرِ :

بنِى المُظَفَّــر والأيــامُ ما بَرِحَت مراحلاً والورَى منهـــا على سَفَرِ
من للأَسِرَّةِ ؟ أو من للأَعنَّة ؟ أَو من للأَسنَّة يُهديها إلى الثَّغَــرِ ؟
من لليراعة ؟ أَو من للبَرَاعةِ ؟ أَو من للسَّمَاحة ؟ أَو للنفعِ والضرر ؟
كانوا رواسِىَ أرض الله . منذ مَضَوْا عنها استطارَتْ بمن فيها و لم تَطِرِ

---

(١) القتاد : نوع من الشوك .

(ا) ماذا فقدت الأندلُس بفقد بنى المُظَفَّرِ فى رأى الشاعر؟ .
(ب) ماذا يحملُ الأُسلوب الاستفهامى فى هذه الأبيات من المشاعر؟ .
(ج) حَرَصَ الشاعرُ على وجود إيقاعٍ موسيقى خاصٍّ داخلَ الأبياتِ . وضح ذلك .

(٦)

للأديبة مى :

أيها الشرقُ الكبير . أَىُّ قوةٍ هذه التى تَشُدُّ وَثَاقى إليك ؟ .

لمـاذا أهْوَى من لغتكَ الشدوَ الشجىَّ ، والنَّبْرَةَ السريعةَ الحادة ، والهُتافَ الأَدبىَّ الحارَّ ؟ . . أية وديعة للغتكَ عنـــدى ؛ حتى تُثِيرَ لهجاتُها عنـــدى البكاء الحنونَ كبكاءِ اللقاءِ بعد فراق طويل ؟ . . ألا نظرةً إلى هذه السماءِ المخيمة عليك ببهاءِ المَسجدِ واللُّجَيْنِ والأُرجوان . إنها الجوُّ الذى أَظلَّ الرسلَ ، إنك أَيها الشرقُ اصطُفيتَ لتكونَ أرض الأبطال .

(ا) صور فى ضوءِ هذه القطعة عاطفَة (مى) نحوالشرق .
(ب) ما النواحِى التى أثارت عاطفتها نحوه ؟ .
(ج) عين كلَّ أُسلوبٍ استفهامىٍّ فى القطعة ، والغرض منه ، ثم بيِّنِ القيمَةَ الجماليَّةَ له .

(٧)

قال شوقى* :

رِباعُ الخلد . ويحك ! ما دهاها ؟ أَحقٌّ أَنها دَرَسَتْ ؟ أَحَقٌّ[١] ؟

(*) من قصيدته فى نكبة دمشق على يد جيش الاحتلال الفرنسى سنة ١٩٢٥ .
(١) رباع : ديار . ويح : كلمة ترحم . درست : بليت .

وهلْ غُرَفُ الجنانِ مُنَضَّدَاتٌ ؟ وهل لنعيمهنَّ كأَمس نَسْقُ[١] ؟
وأَين دُمى المقاصرِ من حجال مهتَّكة وأَستارٍ تُشَق[٢] ؟

(ا) بين الغرضَ البلاغىَّ لكلٍّ أَسلوبٍ استفهامى فى الأبيات .
(ب) بين القيمةَ الجماليَّةَ لأسلوبِ الاستفهامِ فيها .

(١) منضدات : منسقات .
(٢) دمى المقاصر : المراد الفتيات الجميلات . الحجال : جمع حجلة . وهى الستر يضرب للعروس .

الأمر وأغراضه البلاغية

١ – قال تعالى :

« وكأيِّن من نبيٍّ قاتَل مَعَه ربيُّونَ كثيرٌ فما وَهَنُوا لِمَا أَصابَهُمْ فى سَبِيلِ الله وما ضَعُفُوا وما اسْتكَانُوا واللهُ يحبُّ الصَّابِرِينَ . وما كان قولَهم إلا أن قالوا رَبَّنا اغفرْ لنا ذنوبَنا ، وإسرافَنَا فى أَمرنا ، وثبِّتْ أقدامَنا ، وانْصُرْنا على القومِ الكافرين[١] »

٢ – وقال سبحانه :

« فَذَرْنى ومن يكذبُ بهذا الحديثِ . سَنَستَدْرِجُهُم من حيثُ لا يعلمون[٢] »

٣ – وقال المتنبى :

أَقِلَّ اشتياقًا أيها القلبُ . ربمـــا رأَيتُك تُصفى الودَّ من ليسَ جَازيا

٤ – وقال بشارُ بن بُرْدٍ :

أَورق بخَيْرٍ تُرَجَّى للنَّوالِ ؛ فَمَا تُرْجَى الثمارُ إذا لم يورق العــودُ

٥ – وقال تعالى :

« خَلَقَ السمواتِ بغير عمد ترونها ، وأَلْقى فى الأرض رواسِيَ أن تميدَبكم ، وبثَّ فيها من كلِّ دابة ، وأَنزلنا من السماء ماءً فأَنبتنا فيها من كلِّ زوج كريم . هذا خَلْقُ اللهِ ، فأَرونى ماذا خلقَ الذينَ من دونه ؟ بل الظالمونَ فى ضلالٍ مبين[٣] ».

٦ – وقال البارودى :

رُدُّوا على الصِّبَا من عَصْرِىَ الخَالى وهل يعودُ سوادُ اللِّمَّة البالى ؟
ماضٍ من العيشِ مالاحت مخايلُه فى صفحةِ الفكرِ إلا هاج بَلْبَالى

---

(١) سورة آل عمران . الآيتان (١٤٦ – ١٤٧) .

(٢) سورة القلم . الآية (٤٤) .

(٣) سورة لقمان . الآيتان (١٠ ، ١١) .

٧ – ولإيليا أبي ماضي :

لتكن حياتُك كلُّها أمَلاً جميلاً طيِّبا
ولتملأ الأحلامُ نفـ ـسَكِ في الكهولةِ والصِّبا
مثلَ الكواكِب في السما ءِ وكالأزاهر في الرُّبا

* * *

التوضيح :

١ – تأمل في المثالِ الأول تجد أنه يشتمِلُ على عدَّةِ أفعال للأمر : « ربَّنا اغفرْ لنا ذنوبَنَا وإسرافَنَا في أمرنا ، وثَبِّتْ أقدامَنا ، وانْصُرْنا على القومِ الكافرين » ، والطلبُ فيها موجَّهٌ إلى الله تعالى من المؤمنين المخلصين الذين نصرُوا أنبياءهم وقاتلُوا معهم في صبر وجلدٍ ، وفي غير تردد ولا ضعف ، وكانوا إذا عَظُمَتْ أهوالُ الحرب يتجهون إلى الله أن يغفرَ لهم ما بدَرَ منهم من ذنوبٍ ، ويثبتَهم في مواجهة شدائدِ الحرب ، ويهيئَ لهم أسبابَ النصر على أعدائِهم وأعداءِ الدينِ من الكفار ، والأمرُ هنا ليس على حقيقته ؛ لأنه تعالى لا يؤمَرُ ، وإنما يقصد بالأمر الدعاء ، وفيه تتجمع وتمتزج مشاعرُ الخشوعِ لله ، والثقةِ به ، والاطمئنان إلى عظِيمِ قدرتِه ، والتأميلِ في رحمتِه وعفوه ونصره .

٢ – وانظر في المثالِ الثاني تجدْ أنه سبحانه وتعالى يأمرُ نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلَّمَ أن يترك له أمر المشركينَ برسالته وبالقرآن الكريم الذي أنزل عليه لأنه تعالى سَيَسْتَدْرِجُهم شيئاً فشيئاً إلى العذاب ، الذي يستحقونه حتى ينزَلَ بهم من حيثُ لا يعلمون .

والأمرُ بهذا لا يُقصَدُ به ظاهرُه ، ولكن يرادُ به تهديدُ أولئك المشركين بما سوفَ يَحِيقُ بهم من العذابِ الشديدِ الذي لا يُفْلِتُ منه أحدٌ منهم .

٣ – وفي المثالِ الثالثِ ترى المتنبي يُوَجِّهُ الأمر إلى قلبِه أن يقلِّلَ من اشتياقه وتعلقِه بمن لا يفي له ، ولا يبادِلُهُ الودَّ صافيًا خالصًا . فماذا يقصدُ المتنبي بتوجيه الأمر إلى قلبِه ؟

إنه لا يريدُ من الأمر معناه الحقيقيَّ ، ولكنه يتمنى أن يخَفِّفَ قلبُه من غُلَوَائِهِ ،

وَأَلَّا يُلِحَّ فى التعلُّقِ والحنين بمن لا يجزيه حُبًّا بِحُبٍّ ووَفَاءً بوفاء .

٤ – وفى المثالِ الرابع ترى بشارَ بن بُرْدٍ يخاطبُ العباسَ بنَ محمد، وقد حاول استدرارَ عطائِهِ فلم يمنَحْه ، فوجه إِليه هذا الأَمر : (أَورقْ بخيرٍ تُرَجَّى للنوال) يسأله فيه بذلَ العطاءِ ولو قليلاً ؛ فقد بلغ به البخلُ أَنه لا يعطِى شيئاً ، وإِذا لم يعطِ القليل فلا يرجى منه الكثير ، ومن اليسير عليك أَن تُدْرِكَ أَن هذا الأَمرَ فيه تعريضٌ بالمخاطبِ ، وذمٌّ له بالبخلِ والشُّح .

٥ – وإِذا تأَملتَ الأَمرَ فى قوله تعالى : (هذا خلقُ اللهِ ، فأَرونى ماذا خلقَ الذين من دونه ؟) بعد أَن أَوضحت الآية الأُولى كثيرًا من مظاهر قدرةِ الله : فى خلقِ السمواتِ ورفعِها بغير عمدٍ ، وإِرساءِ الجبال الشوامخِ فى الأَرض ، وبثٍّ أَصناف الحيوانِ على ظهرها ، وإِنزال الماءِ من السماء ، وإِخراجِ النباتِ به متعدِّدَ الأَصناف والمنافع – إِذا تأَملتَ الأَمر بعدَ هذا العرضِ الخاطفِ لجانبٍ من مظاهرِ قُدْرَةِ الله فى الأَرض والسماء أَدركتَ أَن الغرضَ منه تعجيزُ أُولئك المشركين أَن يُثْبِتُوا لآلهتِهم التى يَعْبُدونها من دون الله خلقاً مثلَ خلقِه .

٦ – والأَمر فى بَيْتَى البارودىِّ يرادُ به التحسرُ على زمنِ الشبابِ الذى وَلَّى بسحرِه ومباهجه ولن يعود .

٧ – أَما أَبياتُ إِيليا أَبى ماضى فإِن الأَمر فيها يُقْصَدُ به النصحُ والتوجيهُ إِلى الإِقبالِ على الحياةِ وملءِ النفس دائماً بالأَملِ المشرقِ الجميل .

* * *

الخلاصة :

١ – الأَمر الأَدبىُّ هو الذى يحمِلُ وراءَ معناه اللغوىِّ معانىَ ومشاعرَ أُخرى يريدُها القائِلُ ، وتُسْتَشَفُّ من كلامه :

كالدعاء ، والتهديد ، والتمنِّى ، والذمِّ أَو التحقير ، والتعجيز ، والتحسُّر ، والنصح أَو الإِرشاد . . ونحوها مما يطلقُ عليه . الأَغراض البلاغية للأَمر .

٢ – تتضح الأَغراض البلاغيةُ للأَمر من خلالِ تَعَرُّفِ الجوِّ الشعورىِّ المسيطرِ

على قائله ، ومن السياقِ والقرائنِ التى تُحيطُ به .

٣ – سرُّ الجمال فى الأَمرِ الأَدبىِّ أَنه يتصلُ بشعور القائل ، وما تموجُ به نفسُه من أَحاسيس ، وأَنه يجذب السامعَ بانتقاله من المعنى اللغوى إلى ما وراءه من الدلالاتِ والمشاعر .

تمرينات

(١)

من وصيةِ عبد اللهِ بن الحسنِ لابنه :

« أَى بنىَّ . إِنى مُؤَدٍّ حقَّ الله فى تأْديبك ، فَأَدِّ إِلىَّ حقَّ اللهِ فى الاستماعِ منى . أَى بنىَّ . كُفَّ الأَذى ، وارفضِ البَذا(١) ، واستغنِ عن الكلامِ بطولِ الفِكْر فى المواطنِ التى تدعُوك فيها نفسُك إلى الكلام ؛ فإن للقول ساعاتٍ يضرُّ فيها الخطأُ ، ولا ينفع فيها الصَّوَاب » .

(ا) بماذا مهَّدَ عبدُ الله بنُ الحسن لوصيتِه ؟ ولماذا كان هذا التمهيد ؟

(ب) عين أَساليب الأَمر فيها ، و بين الغرَض البلاغيَّ منها .

(٢)

لأَبى القاسمِ الشابِّى يخاطبُ الطائر :

يأَيهــا الشادِى المغَــرِّدُ ها هُنــا ... ثَمِلًا بِغِبْطَة قلبِـــه المسرورِ
قبِّلْ أَزاهيرَ الربيــع ، وغَنِّهــا ... لحنَ الصباحِ الضاحك المحبورِ
واشربْ من النبع الجميلِ الملتوى ... ما بينَ دوحِ صَنَوْبَرٍ وغَدِيــرِ
واتــرُكْ دموعَ الفجــرِ فى أوراقِها ... حتى تَــرَشَّفَهَا عَــرُوسُ النّــورِ

(ا) بماذا يناجى الشابِّى هذا الطائرَ فى الأَبيات ؟

(ب) وما اللونُ الوِجدانىُّ الذى أَوحى إِليه بها ؟

(ج) ما الغرضُ البلاغىُّ من الأَمر فيها ؟ وما سرُّ جماله ؟

---

(١) البذا : فحش القول .

(٣)

قال قَطَرِىٌّ بنُ الفُجَاءة :

فصبراً في مجال الموتِ صَبْرًا فمانيل الخلودِ بمُسْتَطاعِ

وقال المتنبي :

كذا فَلْيَسْرِ من طَلَب الأَعادى ومِثْلُ سُرَاك فليكنِ الطِّلابُ

وقال الشاعر :

أَريني جوادا مات هُزْلاً ؛ لعلني أرى ما تَرَيْنَ أَو بخيلا مخلَّدا

وقال آخر :

عليك نفسك . هذبها ؛ فمن ملكت زمامَه النفسُ عاش الدهرَ مذموما

(ا) بين صيغة الأَمر في كل مثال مما تقدم .

(ب) وضح الغرض البلاغيّ منه ، وسر جماله .

(٤)

قال تعالى :

« إن شجرةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثيم . كالمُهْلِ[1] يغلى في البُطون . كَغَلْيِ الحَمِيم . خذوهُ فاعْتِلوه[2] إلى سَوَاء الجحيمِ . ثم صُبُّوا فَوقَ رأْسِه من عَذَابِ الحميم . ذُقْ إنكَ أَنتَ العزيزُ الكريم[3] » .

(ا) في الآيات أَوامرُ متعددةٌ . عينها .

(ب) بين الغرضَ من كل أَمرٍ .

---

(١) المهل : مصهور المعادن .

(٢) اعتلوه : اجذبوه جذبا عنيفا .

(٣) سورة الدخان : الآيات (٤٣ – ٤٩) .

(٥)

قال أبو العلاء :

صاحِ هذى قبورُنا تملأُ الـــرُّحْـ ... بَ ، فأينَ القبورُ من عهد عاد ؟
خففِ الوطءَ . ما أظنُّ أديمَ الْـ ... أرْضِ إلا من هذه الأجسادِ
وقبيحٌ بنـــا وإن قَدُمَ العهْـــدُ ... هَوانُ الآبــــاءِ والأجدادِ
سِرْ إن اسطعْتَ فى الهـــواءِ رُوَيْدًا ... لا اختيالًا على رُفَاتِ العِبَــاد

(ا) ضع عنواناً يلخصُ فِكْرَةَ الأبيات .

(ب) ما العاطفةُ المسيطرةُ عليها ؟

(ج) ما الغرض البلاغىُّ من الأَمرِ فيها ؟ وضح سرَّ جماله فى ضوءِ القرائنِ المحيطة به ؟ .

(٦)

لأبى القاسمِ الشابِّى من قصيدتِه (إلى طغاة العالم) :

حـــذارِ فتحتَ الرَّمادِ اللهيبُ ... ومن يبذرِ الشوكَ يجنِ الجِرَاح

(ا) اشرح البيت بأسلوبِكَ .

(ب) بيِّنْ صيغةَ الأمر ، ثم وضحِ الغرضَ البلاغىَّ منه .

٣ – النهى وأغراضه البلاغية

١ – قال تعالى :

« لا يُكَلِّفُ الله نفساً إلا وُسْعَهَا ، لها ما كسبَتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ ربنا لا تُؤَاخِذْنا إن نسينا أو أخطأْنا ، ربَّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصرًا كما حملتَهُ على الذين من قَبْلِنَا ، ربنا ولا تُحَمِّلْنَا ما لا طاقةَ لنا به ، واعفُ عنَّا ، واغفِرْ لنا ، وارحمْنا أنت مولانا ، فانصُرْنَا على القومِ الكافرين[1] » .

٢ – وقال إسماعيل صبرى على لسان فرعونَ يخاطبُ المصريين :

لا تقْرَبُوا النيلَ إن لم تعْملُوا عمَلًا ... فماؤُه العذبُ لم يُخْلق لكَسْلَانِ
رِدُوا المجَرَّةَ كَدًّا دونَ مورِدِهِ ... أو فاطلبُوا غيرَه رِيًّا لِظَمْآنِ
لا تتركُوا مستحيلًا فى استحالتِهِ ... حتى يُميط لكم عن وجْهِ إمكَانِ

٣ – وقال الشاعر :

لا تطلبِ المجدَ إن المجدَ سُلَّمُه ... صَعْب ، وَعِشْ مُسْتَريحاً خَالِى البالِ

٤ – وللمتنبى فى سيفِ الدولة :

لا تطلبَنَّ كريماً بعد رؤْيتِه ... إن الكرامَ بأَسخاهُمْ يدًا خُتِمُوا
ولا تبالِ بشِعْرٍ بعد شَاعره ... قد أُفسدَ القولُ حتى أُحمِدَ الصَّمَمُ

٥ – وللخنساءِ فى أَخيها صخر :

أَعينىَّ جُودَا ولا تَجْمُدَا ... أَلا تبكيَانِ لصخرِ النَّدَى ؟
أَلا تبكيَانِ الجَوَادَ الجميلَ ... أَلا تبكيَانِ الفتَى السيِّدا ؟

التوضيح :

ارجع إلى الأمثلة السابقة ، وانظر إلى أُسلوب النهىِ فى كلٍّ منها ، وحاول أَن تتعرفَ الغرضَ الأَدبىَّ الذى سيق فيه .

---

(١) البقرة : الآية الأخيرة .

فى المثال الأول تأمل الآية الكريمةَ تجد أنها تطالعُك بموقف المُؤمنين المخلصين ، يتجهون إلى الله تعالى مبتهلينَ إليه : « ربنا لا تُؤَاخِذْنا إن نسينا أو أخطأْنا . . » وتجد أن النهىَ فيها ليس على حقيقته ؛ لأن الله تعالى أَجلُّ من أن يوجَّهَ إليه نَهْىٌ ، وإنما الغرض منه « الدعاءُ » ؛ بما وراءهُ من خُشُوعٍ وضَرَاعة .

وفى النموذَج الثانى لإسماعيل صبرى ترى فرعونَ ينهى المصريين أن يشربُوا من ماءِ النيل إن لم يقدِّمُوا عملًا عظيما ، يُصْبِحونَ به جديرينَ أن يشربوا منه ، كما ينهاهم عن أن يتركوا مستحيلًا دون أن يحوِّلوه ممكنا بجدِّهم ومثابرتِهم .

وهو يحمِّلُ هذا النهىَ معنى « الحثِّ على الانطلاقِ إلى العمل والتغلبِ على الصعابِ ، بالمحاولة ، والكدحِ ، والجلَد .

وفى النموذجِ الثالث ترى الشاعرَ ينْهى من يخاطبُه أن يُعَنِّيَ نفسه بطلبِ المجد ، ويُتْبِعُ ذلك تعليلا يبينُ فيه أن طريقَ المجد صعبةٌ ؛ فَمِنَ الخيرِ له أن يدعَها ، ويركنَ إلى الراحةِ وهدوءِ البال . ومن اليسير أن تُدْرِكَ هدفَ الشاعرِ من هذا النهى ؛ فإنه يُحَمِّلُهُ معنى « التحقير » مع سخرية وتهكم ؛ لأن المخاطبَ – فيما يرى الشاعرُ – أقلُّ من أن تكونَ له همةٌ تدفعُه إلى معالى الأمور .

وفى النموذجِ الرابعِ تقفُ أمام بيتين للمتنبى ، يمدحُ فيهما سيفَ الدولةِ ، وينهى فيهما عن أن يَطْلُبَ أحدٌ إنساناً كريماً بعده ؛ لأن سخاءه قد بلغَ الغايةَ ، وينفذُ من خلالِ ذلك إلى نَهْيٍ آخر ، يطلب فيه ألا يبالىَ أحد شاعراً بعد شاعر سيف الدولةَ ، وهو المتنبى نفسُه ؛ لأن الشعرَ – فيما يرى – قد هوى على يدِ غيره إلى درجةٍ أصبح الصممُ معَها محمودا .

وبنظرةٍ متأملةٍ ترى أن النهىَ فى البيت الثانى يحملُ معنى « التيئيس » من أن يبلغَ أحد مبلغَ سيفِ الدولةِ فى كرمه ، مع ما فيه من تعظيمٍ له ، وأنه فى البيت الأخير يحملُ معنى الفخر ؛ ففيه يفخر الشاعر بنفسِه ومكانتِه الشعريةِ فخراً يبلغ حدَّ الإسرافِ والمغالاة .

وفى النموذجِ الخامس تقف أمامَ بيتين للخنساء ، تنهى فيهما عينيها أن تجمُدَا عن البكاءِ على أخِيها صخر ، وَتدَهْشُ لأنهما لم تسعِفَاها بالدمعِ عليه ،

وهو أَحبُّ الناس إِليها ، وأَغلاهم عندها،بأُخوتهِ ، وجودِه ، وفتوتهِ ، وجمالِه ، وسيادتِه .

ومن هذا الجوِّ الحزين الحائِر يتضحُ لك أَنه نهى يحملُ معنى الحسرة بما وراءها من حيرةٍ وذهول .

الخلاصة :

مما تقدمَ يتبينُ :

١ – أَن النهى الأَدبى يأْتى لأَغراض بلاغية ، منها : الدعاءُ ، والحثُّ ، والتحقــيرُ ، والتعظيمُ ، والتيئيسُ ، والفخرُ ، والتحسر ، مع ما يحُفُّ بهذه الدلالاتِ من مشاعرَ وأَحاسيس .

٢ – هذه الأَغراض ليست محدودةً ، ولكنها تتنوع بتنوع المشاعر والجوِّ النفسىِّ المسيطِر على القائل .

٣ – يمكن إِدراك هذه الدلالاتِ والمشاعرِ فى ظلِّ الجوِّ النفسى الذى سيق فيه النهى ، ومن السياقِ والقرائِن التى تحيط به .

٤ – سرُّ جمالِ النهىِ الأدبى أَنه يَنْقُل القارئَ إلى ما وراءَ المعنى اللغوىِّ من دلالاتٍ وإِيحاءات ، وفى هذه الانتقالة إِثارةٌ للانتباه ، مع ما تضفى هذه الدلالاتُ والإِيحاءاتُ على الكلامِ من ثراء وقوة وتأثير .

تمرينات

(١)

من رسالة لعُمَرَ بنِ الخطابِ إلى سعدِ بن أَبى وقاصٍ وقد أَمَّرَه على حربِ العراق :

« ترفَّقْ بالمسلمين فى سيرِهم ، ولا تُجَشِّمْهم مسيراً يتعبُهُم ، ولا تُقصِّرْ بهم عن منزلٍ يرفُقُ بهم ؛ حتى يبلغُوا عَدُوَّهم والسفرُ لم ينقُصْ قوتَهم ، فإنهم سائرون إلى عدوٍّ مقيم . . ونحِّ منازلَهم عن قرى أَهل الصلحِ والذمة ، فلا يدْخُلْها من أَصحابِك إلا من تثقُ بدينه ، ولا يَرْزَأْ[1] أَحدًا من أَهلها شيئا » .

(ا) ماذا تضمنت هذه القطعةُ من الوصايا الحربية ؟

(ب) عين أَسلوبَ النهى فيها ، وبين الغرض منه .

(٢)

لأَبى فراسٍ يخاطبُ سيفَ الدولة :

ولا تتقلَّـــدْ ما يروقُك حملُـه ... تقلدْ إذا حاربتَ ما كان أَقطعَـا

ولا تقبلنَّ القولَ من كلِّ قائـلٍ ... سأُرضيكَ مرأًى . لستُ أُرضيك مسمعا

فلله إحسانٌ علىَّ ونعمـةٌ ... ولله صنعٌ قـد كفانى التَّصَنُّعَـا

(ا) ماذا يطلبُ أَبوفِراسٍ من سيفِ الدولة فى الأَبيات ؟ .

(ب) عين أَساليب النهى فيها .

(جـ) فى الأَبيات تعريضٌ ، فكيف تفهمُ ذلك منها ؟

---

(١) يرزأ : ينقص .

(٣)

للشابِّى :

رويدَك لا يخدَعنْك الربيــــعُ   وصحوُ الفضاءِ وضوءُ الصبـــاح
فِى الأُفقِ الرحبِ هولُ الظـــلامِ   وقصفُ الرعودِ وعصفُ الرياح

(ا) اشرح البيتين بعبارتك .
(ب) ما الغرضُ البلاغىُّ من النهىِ فيهما ؟
(جـ) وضح سرَّ جمال هذا النهى فى ضوءِ القرائن المحيطَةِ به ؟

(٤)

لشفيق جبرى من قصيدتِه (انتفاضةِ العرب) يخاطبُ الأُمةَ العربية :

مهلًا فلا تيئَسِنَّ اليـــومَ إن عَبَسَتْ   لكِ الليالى ، وإن ماجَتْ بكِ الظُّلَمُ
ماضٍ موكبُـك الجـــــارَ أن طرَحُوا   صخراً على دربِه ؛ فالصخــرُ ينحَطِمُ

(ا) عين أُسلوبَ النهى فى الأَبيات .
(ب) بين الغرضَ منه ، وسرَّ جماله .

(٥)

قال تعالى :

« ربَّنا إننا سمِعْنا مناديًا ينادى للإِيمان أَن آمِنوا بربكم ، فآمَنَّا ، ربنا فاغْفِرْ لنا ذُنوبنَا وكفِّرْ عنا سيئَاتِنا ، وتوفَّنا مع الأَبرار . ربنَا وآتِنَا ما وعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِك ، ولا تُخْزِنَا يوم القيامةِ إنك لا تُخْلِف الميعاد(١) » .

(ا) عين أَساليبَ الأَمرِ والنهى فى هذه الآيات .
(ب) بين الغرَض البلاغىَّ منها ، وما تَحْمِلُ من مشاعر .

---

(١) سورة آل عمران . الآيتان (١٩٣ ، ١٩٤) .

(٦)

لقاسم الحريرى :

لا تَقْعُدَنَّ على ضُرٍّ ومَسْغبـــةٍ لكى يقالَ : عزيزُ النفسِ مُصْطَبِرُ
وانظُرْ بعينك : هل أَرْضٌ معطَّلَةٌ من النباتِ كأَرضٍ حفَّهَا الشجر ؟
واستنزلِ الرِّيَّ من دَرِّ السحابِ ، فإن بُلَّت يداك به فَلْيَهْنك الظفَرُ

(ا) إلام يدعو الشاعرُ فى الأَبيات ؟

(ب) بين أَنواع الإِنشاءِ فيها .

(جـ) تحدثْ عن أَغراضِها البلاغيةِ فى ضوءِ القرائنِ المحيطةِ بها .

(د) بين رأْيك فيها من الناحيةِ الجمالية .

التقديم والتأخير

مَرَّ بك أَن الجملةَ فى اللغةِ العربية لها نظامٌ خاصٌّ فى ترتيب أَجزائِها ، فالجملةُ الاسميةُ يتصدَّرها المبتدأُ ، ويليه الخبرُ ، ثم ما تعلق به ، والجملةُ الفعلية تبدأُ بالفعل ثم يأْتى الفاعل ، والمكملاتُ ، مثل :

الشعوبُ المستعبدةُ ماضيةٌ فى طريقِ التحرر .

ظَفِرَت شعوب كثيرة بحريتِها خلالَ القرنِ العشرين .

ولكنك أَحياناً ترى بناءَ الجملة قد جاءَ على غير النسقِ المأْلوفِ فيها ، فتقدمَ ما كان حقُّه أَن يتأَخرَ ، وتأَخرَ ما كان حقُّه أَن يتقدم ، وذلك لأَغراضٍ بلاغيةٍ يؤَديها التقديمُ والتأْخير . انظر الأَمثلة الآتية :

(أ)

١ – قال تعالى :

« وقالَ الذين كَفَروا لن نُّؤمِنَ بهذا القرْآنِ ولا بالذى بين يديه ، ولو ترى إِذ الظالمونَ موقُوفونَ عند ربِّهم يَرْجعُ بعضُهم إِلى بعض القولَ : يقولُ الذينَ استُضْعِفُوا للذين استكبَرُوا لولا أَنْتُم لكنا مُؤمنين . قال الذين اسَتكبَرُوا للذين استُضْعِفُوا : أَنحنُ صَدَدْناكم عن الهُدَى بعدَ إِذْ جاءَكم ؟ بل كنتُم مجرِمين[١] » .

٢ – وقال سليمان العيسى :

لى موطنى لا للدخيـــــل ولى بأَزهــــارى عبيرى
فى هــــذه الجنــاتِ والـ أَنهـــارِ فى وطنى الكبـــيرِ

٣ – ومن الشعر الوطنى :

إِلى كلِّ طاغٍ يَمَسُّ الحــدودَ سَنمضى ونحــنُ الأُسودُ الجياع

---

(١) سبأ . الآيتان (٣١ ، ٣٢) .

٤ – وقال ابن الرومي :

ضلَّـــةً لامرئٍ يشمِّرُ فى الجمـ ـــع لعيشٍ مُشَمِّرٍ للفنَـــاءِ
دائبًا يكنِـــزُ القناطيرَ للــوا رث والعُمْرُ دائبٌ فى انقضاءِ

٥ – وقال تعالى :

« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ[١] » .

لأَبي طالب وقد تقدمَ يطلبُ يدَ خديجةَ لابن أخيه محمد (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) :

الحمد لله الذى جعَلَنَا من ذرية إبراهيمَ ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدًا حراما ، وبيتًا محجُوجًا ، وجعلنا الحكامَ على الناس .

ثم إن محمدَ بنَ عبد الله ابن أَخي من لا يوزَنُ به فتًى من قُرَيْش إلا رَجَحَ عليه بِرًّا ، وفَضْلا ، وكرمًا ، وعقلا ، ومجدًا ، ونبلا .

وإن كان فى المال قُلٌّ فالمال ظلٌّ زائلٌ ، وعاريَّةٌ مستَرْجَعَةٌ ، وله فى خديجة بنتِ خويلدٍ رغبةٌ ، ولها فيه مثلُ ذلك ، وما أحببتُم من الصداق[٢] فعليَّ .

جـ

للفيتوري :

إن نكن سِرنا على الشوك سنينا ولقينـــا مـــن أذاه ما لقينا
إن نكـــن بتنا عُـراةً جائعينـــا أَو نكـــن عشنا حُفَاةً بائسينا
إن نكن قد أُوهت الفاس قوانـــا فوقفنـــا نتحـــدَّى الساقطينا
إن يـكُن سخَّرَنَا جلَّادُنـــــا فبنينـــا لأمانينـــا سجُونا
ورفعناهُ عـــلى أعناقِنـــا ولَثِمْنَـــا قدميـــه خاشعينَا

(١) الفاتحة : الآية : (٥) .
(٢) الصداق : المهر.

وملأْنـــا كأْسَهُ مـــن دَمِنَا فتساقانا جراحـــاً وأَنينَـــا
وجعلنـــا حَجَـــرَ القَصْرِ رءُوساً ونقَشْناهُ جفونًا وعيونَـــا
فلقـــد ثُرْنَـــا على أَنْفُسِنَا ومحوْنَا وصمةَ الذِّلَـــةِ فينا

التوضيح :

(١)

عد إِلى النماذِج المتقدمة ، وتأَملْ فيها تجدْ أنك فى كلٍّ منها أَمام تقديمٍ وتأْخيرٍ من النوع الأَدبى :

ففى النصِّ القرآنىِّ رقم (١) من المجموعة (ا) ترى تصويرًا لحال الكفارِ فى الآخرة ، وهم يتلاومون ، ويُلْقِى بعضُهم على بعضٍ تَبِعةَ ما صارَ إِليه أَمرهم ؛ فالمستضعفـونَ يتهمون المستكبرين بأَنهم هم الذين أَضَلُّوهم ، وساقوهم إِلى هذه النهايةِ الأَليمة ، والمستكبرون يتَنصَّلُون مما يرمونهم به وينكرونَه ، قائلين : أَنحن صَددناكم عن الهدى بعد إِذْ جاءَكم ؟ .

وإِذا نظرت إِلى هذا الاستفهام تجدْ أَن لفظة « نحن » قد تقدَّمت على الفعلِ « صددنا » ، والسرُّ البلاغىُّ فى تقديمِها أَن المستكبرينَ فى هذا الموقفِ الرهيبِ مهتمـــون بأَنفسِهم ، حِرَاصٌ على نَفْىِ الجريمةِ عنها ؛ ولهذا تَلَتْ « نحن » همزةَ الاستفهام .

وفى قول سليمانَ العيسى ترى الشاعرَ قد أَتى بالجارِّ والمجرور (لى) مرتين فى البيت الأَول ، وكلٌّ منهما خبر ، وفى كلِّ مرةٍ يتقدمُ الخبرُ على المبتدأ .

وفى هذا التقديم جمالٌ بلاغى ؛ لأَن الشاعرَ يريدُ أَن يقررَ فى الأَذهان أَن وطنَه خاصٌّ به ، وأَن كلَّ ما فيه : من ترابِه ، وجناته ، وأَنهاره ، وعبيرِ زهرِهِ مِلْكٌ خالص له لا للدخلاءِ ، وأَن كل من ينازعه شيئًا من ذلك معتدٍ غَاصِب .

وفى المثال رقم (٣) ترى أَن الشاعِرَ قدم الجار والمجرور ، « إِلى كل طاغٍ » على الفعل « سنمضِى » مع أَنهما متعلقان به ، والمأْلوف أَن يأْتيَا بعدَه .

والسببُ فى هذا التقديم أَن ما يثيرُ غضبَه هو هذا الطاغى الذى تُحَدِّثه نفسُه

أن يمس الحدود ، ولهذا يعجِّلُ بذكره مقترنًا بالتهديدِ الذى يتضمنُه البيت .

وفى بيتى ابن الرومى ترى أن الحال « دائبا » تقدمت على الفعلِ « يَكْنِزُ » وقد قدَّمها الشاعرُ عليه ؛ لأن تقديمَها يصوِّرُ الحرصَ البالغَ على جمع المال ، ويزيدُ من ملامح الصورةِ الساخرةِ التى يعرِضُها ابن الرومى لغفلةِ الشحيح وصِغَرِ عقله .

وفى النموذجِ الأخيرِ من هذه المجموعةِ (ا) ترى أن المفعولَ به تقدَّمَ على الفعل ، وأن الغرضَ من تقديمهِ الدلالَةُ على أن العبادةَ لله وحدَه ، وأن الاستعانَةَ الحقيقيَّةَ إنما تكونُ به دون سواه .

ولعلك لحظْتَ أن التقديمَ فيما سبق لا يعدو أن يكونَ فى جزءٍ من أجزاءِ الجملة كالفاعِل ، أوالخبر ، أوالمتعلق ، أوالتكملة .

(ب)

انتقل إلى خطبةِ أبى طالب تجد نفسَك أمام نوعٍ آخرَ من التقديم ، ليس فى جزءٍ من أجزاءِ الجملة ، وإنما هو فى عرضِ الموضوع ، فأبو طالبٍ يطلبُ يدَ السيدةِ خديجةَ لابن أخيه محمدٍ (عليه السلامُ) ، ولكنه لا يدخلُ فى الموضوع مباشرةً ، ولا يواجهُ بالفكرة ، بل يتأَتَّى لها ، حتى يُقنعَ بها ؛ لأنه يعلمُ - فيما يعلمُ - أن خديجةَ من شريفات قُرَيْش ، وأن لَها من الثراءِ ما ليس لغيرِها ، وأنها أمنيةُ كثيرٍ من سَراةِ القُرَشِيِّين .

انظر إليه . لقد بدأ يتحدثُ عن نسبِ بنى هاشمٍ آل محمد ، فإذا هو خيرُ نسب ؛ لأنهم من ذُرِّيَّةِ إبراهيم وزرع إسماعيل ، وانتقلَ إلى منزلتِهم فى مكةَ فإذا هى خيرُ منزلةٍ ؛ لأنهم سدنةُ الكعبة ؛ والقائمون بأمرِ البيتِ الحرامِ ، ولهم الحكمُ فى الناس ، ثم تحدثَ عن محمدٍ ، فإذا هو خيرُ فتًى فى قريش ؛ لأنه ليس من فتيانِها من يساويه فى برِّهِ ، أوفضله ، أوكرمِه ، أوعقلِهِ ، أومجدِه ، أو نبله .

وإذ قد بَلغَ ذلك من نفوسِ السامعين اعتذرَ عن قلة ماله ، بأن المالَ ظل زائلٌ ، يكون حيناً ، ولا يكون حيناً آخر ، ثم عرض بعدَ ذلك كلِّه لخِطْبَةِ خديجة .

ولا شك أن جمالَ هذا التقديمِ نابعٌ من اقترانِه بشعورِ أبى طالبٍ ، ومن تقديرِه للموقف ، ومن انتقالاتِه التى ملك بها أزمَّة النفوس ، فكان له ما أراد .

ومثل هذا التقديم يكون فى عرضِ الموضوع النثرى ، ويكونُ فى عرضِ الموضوع الشعرى ، كما فى أبياتِ الفيتورى ؛ ففيها يعرضُ فظائعَ الاستعمارِ فى صورٍ تتوالَى كما تتوالَى صورُ المأساةِ حزينةً دامية .

سارَ أهلُ إفريقيَّةَ دهراً بينَ أشواكِ الحياةِ بعبُودِيَّتِهَا ، وذلتِها ، وحرمانها ، وقاسَوا الآلامَ منها .

كان ليلُهم للعُرْى والجوع ، ونهارُهم للبؤْسِ والحفاء .

كانت الفأسُ التى يضربونَ بها الأرض فى خدمةِ جَلَّادِهم تُوهِى قواهم ، ومع ذلك لا يُلْقُونَها من أيديهم .

كان هذا الجلادُ يُسَخِّرهم ، فيخضعونَ له ، وقد انطوَوْا على نفوسِهم ، وقبَرُوا فيها أمانيَّها .

كانوا يمجِّدُون هذا الجلادَ ، فيحملونه على الأعناق ، ويخرُّون له خاشعين ؛ لِيَلْثِمُوا أقدامه .

كانوا يقدِّمون له الدماء ، ليملأَ منها كأسه ، ويحتسيَها مستمتِعًا بأنينِهم وجراحِهم .

بَنَوْا له قصرًا من جماجِمِهم ، وجعلوا نَقْشَهُ من عيونهم وأجفانهم .

كان ذلك كلُّه ، وتحمَّلُوا ذلك كلَّه ، والشاعرُ حريصٌ على أن يقدِّمَ هذه المآسىَ فى هذا العرضِ الذى يأتِى به الشرطُ فى الأبيات ، حتى البيت الأخير ولا جوابَ له ، وفى هذا البيت الأخير ، وبعد كل ما تقدمَ يأتى الجواب : لقد ثارُوا على الضعف فى نفوسِهم ، وحطَّموا بهذه الثورةِ ما كانوا فيه من ذلةٍ وهوان .

وقد لجأ الشاعرُ إلى هذا المسلك الذى أخَّر فيه الجوابَ ؛ ليعرضَ جرائم المستعمرين متتابعة ، تستثيرُ القارئَ ، وتدفعُه إلى مشاركة الشاعر فى السُّخْط عليهم . حتى إذا انتهى إلى آخر الأبيات أحست نفسُه إشراقةَ الأمل بما ذَكَرَ عن الثورة التى قَضَت على الضعفِ فى النفوس ، وعلى ما كان من ذلٍّ ومهانة .

والتقديم تراه واضحاً فى القصة ، فكثيرًا ما يقدِّمُ الكاتبُ بعض أَجزائها لغرضٍ فنى ، بل قد يأْتى بالنهاية بادئَ ذى بدءٍ ، ثم يُتْبِعُ ذلك أحداثَ القصة .

* * *

الخلاصة :

مما تقدم يتبين :

١ – أَن الكلامَ قد يأْتى على نظامه العادىِّ المأْلوف ، دونَ تقديم أَو تأْخير .

٢ – قد يتقدمُ ما حقُّه التأْخيرُ ، كأَن يتقدمَ الفاعلُ أَو ما هو فى معنى الفاعل على الفعل ، أَو يتقدمَ عليه المتعلِّقُ به ، أَو بعض المكملات كالمفعول به ، والحال ، وكأَن يتقدمَ الخبرُ على المبتدإِ .

٣ – كما يكون التقديمُ والتأْخير فى الجملة يكونُ فى عرض الموضوعِ النثرىِّ أَو القصيدة ، أَو القصة .

٤ – من الأَغراض البلاغية للتقديم :

– إِفادةُ الاختصاص .
– قصرُ المتقدِّمِ على المتأَخر .
– استثارة الانتباه إِلى المتقدِّمِ ، والدِّلالةُ على اهتمام المتكلم به .
– التدرجُ فى إِقناع النفس بالمتأَخر ؛ حتى تستقرَّ إِلى قبوله .

٥ – يجمُلُ التقديمُ أَو التأْخيرُ إِذا صدَرَ فى ظلِّ إِحساسٍ وجدانىٍّ صادقٍ ، وأَثارمن المشاعرِ والدلالات ما يجعلُه أَقدرَ على إِمتاعِ القارئِ والتأْثير فى نفسه .

تمرينات

(١)

قال تعالى :

« وعلى الذينَ هادُوا حرَّمْنَا ما قَصَصْنَا عليك من قَبْلُ ، وما ظلمناهُم ولكن كانوا أنفسَهم يظلمُون . ثم إنَّ ربَّكَ للذين عَمِلُوا السوءَ بجَهَالَة ، ثم تابُوا من بعد ذلك وأصلَحُوا . إن ربَّكَ من بعدِها لَغَفُورٌ رَّحيم[١] » .

(ا) فيما تحتَهُ خطٌّ في الآيتين ثلاثةُ مواطنَ للتقديم . وضِّحْها ، وبين الغرضَ البلاغيَّ منها .

(٢)

زعم العربُ أن أرنباً التقطتْ تَمْرَةً ، فاختَلَسَهَا الثعلبُ ، فأكلهَا ، فانطلقا إلى الضَّبِّ ، فقالت الأرنب : يا أَبا الحِسْلِ[٢] قال : سميعا دعوت . قالت : أَتيْنَاكَ نختصم . قال : عادلاً حَكَّمْتُمَا . قالت : فاخرُج إلينا . قال : في بيتِه يؤْتَى الحكم . قالت : إني وجدتُ تَمْرَةً . قال : حلوةً فكليها . قالت : فاختَلَسَها ثُعَالةُ[٣] . قال : لنفسه بغَى الخير . قالت : فلطمتُه . قال : بحقِّكِ أَخذتِ . قالت : فلطمني أُخرى . قال : حرٌّ انتصفَ . قالت : فاقضِ بيننا . قال : قد قضيتُ . فذهبت أَقواله أَمثالا .

(ا) عين مواطنَ التقديمِ ونوعَ كلٍّ منه في القطعة السابقة .

(ب) بين ما أَفاده التقديمُ في كلٍّ موطن ، ورأْيَكَ فيه .

---

(١) سورة النحل . (الآيتان ١١٨ ، ١١٩) .

(٢) الحسل : ولد الضب .

(٣) ثعالة : الثعلب .

(٣)

لأَبى العلاء المعرِّى :

أَلافى سبيلِ المجــدِ ما أَنا فَاعــلُ عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائــلُ
أَعِنْدِى وقد مارستُ كلَّ خَفِيَّةٍ يُصَدَّقُ واشٍ أَو يَخيبُ سائِلُ ؟

(ا) اشرح البيتين مبينًا ما يفخرُ به الشاعر .
(ب) بين أُسلوب التقديمِ فيهما والغرضَ منه .
(ج) وضح رأيكَ فى هذا التقديمِ من الناحيةِ الجمالية .

(٤)

للشاعر كمال عبد الحليم :

هناكَ وفى فجوة من جدارْ
وفوقَ الحُطَامِ وبينَ الدَّمَار
وصوتُ الرَّدَى مُثْقَلٌ بالغبار
أَخى كانَ يحرُس ضوءَ النهار
ومِدفعُه يصنَعُ الإِنْتِصار[١]

(ا) صور فى عبارة أدبية هذه الصورة التى رسَمها الشاعرُ فى الأَبيات .
(ب) وضِّح التقديمَ فيها ، وبين نوعَه .
(ج) ماذا فى هذا التقديمِ من جمال ؟

---

(١) تقتضى صحة الوزن النطق بالهمزة فى كلمة (الانتصار) مع أنها همزة وصل .

(٥)

لعلى محمود طه من قصيدته (طارق بن زياد) :

أَشباحُ جِنٍّ فَوْقَ صَــدْرِ المـــاءِ تَهْفُو بأَجنحة من الظلماء ؟
أَم تلكَ عِقْبَانُ السماء وَثَبْنَ مِــــنْ قُنَنِ الجِبَالِ على الخِضَمِّ النائِي ؟
لا بل سفينٌ لُحْنَ تَحْتَ لوَاءِ لمـــن السفينُ تُرى ؟ وأَىُّ لوَاءِ ؟
ومن الفتى الجبارُ تَحْتَ شِرَاعِهـا متربِّصًا بالمـــوجِ والأَنْــوَاءِ ؟
يُعْلِي بِقَبْضَتِـــــه حمـــائلَ سيفه ويضُمُّ تَحت الليلِ فَضْلَ رِدَاءِ
يابنَ القِبَابِ الحُمْرِ! ويحكَ! من رمى بكَ فوق هذِى اللجةِ الزرقاء ؟
تغزو بعينَيْكَ الفضـــاءَ وخلفَــه أُفُقٌ من الأَحلام والأَضــواءِ
وتلفَّتوا فإِذا الخضمُّ سحابـــةٌ حمْراءُ مطبقةٌ عَلى الأَرجــاءِ
وأَتى النهارُ وسارَ فيــــه طارِقٌ يبنى لملْكِ الشَّرْقِ أَىَّ بنَــاءِ

فى الأَبياتِ تقديمٌ يتدرَّجُ شيئًا فشيئا حتى يضعَ أَمامك صورةً واضحةً لعظمةِ طارقِ بن زياد . وضح ذلك .

الذكر والحذف

(ا)

وصفَ أَحدُ جنود عمرو بن العاصِ قائدَه ، فقال :

« إنه بطلٌ مِغْوارٌ لا يبالى بالشدائد ، ولا يخافُ الأَهوال ، يُجيدُ الضرْبَ بالسيف والطعنَ بالرمح ، ويُحْسِنُ الكرَّ والفرَّ ، ولا يَطيشُ لبُّه ما ضاقَ به الأَمرُ . . . وهو إلى ذلك محبٌّ للغنَاء ، مُجيدٌ للقَريض ، ودُودٌ عَطُوف ، ليِّنُ الجانب ، ولكنه إذا غَضِبَ للحقِّ ، أَو خاضَ حَوْمَةَ الوغَى صارَ كالأَسَد الهائج ، أَو النارِ المتأَجِّجَةِ فى اليومِ العاصف لا تُبْقِي ولا تَذَر . . » .

(ب)

١ - قال تعالى :

« وأَنَّا لا ندرى أَشَرٌّ أُرِيدَ بمَنْ فى الأَرْضِ أم أرادَ بهم رَبُّهمْ رَشَدًا [١] » .

٢ - وقال تعالى :

« وقالوا لو كنا نَسْمَعُ أَو نعقلُ ما كنا فى أَصحاب السعير [٢] » .

٣ - ولجميل بنِ مَعْمر .

إذا قلتُ ما بى يا بثَيْنَةُ قاتــلى ... مِنَ الحبِّ قالت : ثابِتٌ ويزيدُ

(ج)

١ - قال تعالى :

« أَم اتَّخَذُوا من دونِه أَولياءَ فاللهُ هو الولىُّ ، وهو يُحْيِي الموتَى ، وهو على كلِّ شىءٍ قدير [٣] »

---

(١) سورة الجن . الآية (١٠)

(٢) سورة الملك . الآية (١٠)

(٣) الشورى . الآية (٩)

٢ – وقال سبحانه وتعالى :

« ولو تَرَى إذ وُقِفُوا على النارِ فقالوا : يا ليتَنَا نُرَدُّ ولا نكذبَ بآياتِ ربِّنَا ونكونَ من المؤمنينَ[١] »

٣ – وقال سبحانه :

« مِمَّا خطيئاتِهم أُغرِقوا ، فأُدخِلُوا ناراً فلم يجدُوا لهم من دونِ اللهِ أَنصاراً[٢] » .

٤ – وقال تعالى :

« قَالَ قد أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى . ولقد مَنَنَّا عليكَ مرةً أُخرى . إِذ أَوحينا إلى أُمِّكَ ما يُوحَى . أَنِ اقْذِفِيه فى التابُوتِ ، فاقذفيهِ فى اليَمِّ فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بالساحِلِ يأْخُذْهُ عَدُوٌّ لى وعدوٌّ له ، وأَلقيتُ عليكَ محبَّةً منى ولتُصْنَعَ على عَيْنِى . إذْ تمشى أُختُكَ ، فتقول : هل أَدُلُّكُمْ عَلى منَ يَكْفُلُه ، فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ كى تَقَرَّ عينُها ولا تحزنَ[٣] »

التوضيح :

الأَصلُ فى بناءِ الجملة العربيَّةِ أَن تُساقَ مستوفيَةً أَجزاءَها ، سواءٌ أَكانَت فعليةً أَم اسميةً ، ولكن قد يحدُثُ فى الكلامِ حذفٌ لأَغراضٍ بلاغية ، ويمكنُ أَن تتبينَ ذلكَ فى النماذج السابقة .

انظر إلى القطعةِ (١) التى يصفُ فيها الجندىُّ قائدَه عمرو بنَ العاص تجدْ أَنها تشتَملُ على جُمَلٍ متعددةٍ : اسميةٍ وفعليةٍ ، وقد ذُكِرَتْ كلٌّ من هذه الجمل كاملة ، ولم يُحْذَف منها شىءٌ ؛ ففى الجملة الأُولى: « إنه بطل » تجد إنَّ واسمها وخبرها ، وفى جملة « يجيدُ الضربَ بالسيف » تجد الفعلَ وفاعلَه المستترَ ، والمفعولَ ، ثم الجارَّ والمجرورَ المتعلقين بالفعل . . وهكذا فى بقية الجمل .

* * *

(١) سورة الأنعام (الآية ٢٧) .

(٢) سورة نوح (الآية ٢٥) .

(٣) سورة طه (الآيات ٣٦ – ٤٠)

انتقل إلى أمثلةِ المجموعة (ب) وتأمل فى الآية الأولى تجد أن الفعلَ مبنىٌّ للمجهول ، وأن الفاعلَ لم يذْكَرْ فى : (أَشَر أُريدَ بمن فى الأرضِ) ، وذُكر فى « أَمْ أرادَ بهم ربُّهم رَشَدًا » . فماذا وراءَ هذا الحذفِ من غرضٍ بلاغى ؟ .

إن الفاعِل قد حُذِفَ مع إرادة الشرِّ إجلالاً للهِ سبحانه وتعالى ، وإيماءً إلى أن الشر إنما يصيبُ النَّاس بسبب ما يرتكبونَ من آثامٍ ، أما إرادةُ الخير لهم فقد أُسْنِدَت إليه تعالى .

وفى الآيةِ الثانية: « لو كنا نسمعُ أو نعقِلُ ما كنا فى أصحاب السعير » تجدُ أن المفعول به قد حُذِفَ مع كلٍّ من الفعلين فى هذا الاعترافِ الذى سِيق على ألسنةِ الكفار ؛ فهم لم يسمعوا الدعوةَ إلى الإيمان سَمَاعَ وَعْى وَتدَبُّرٍ ، ولم يتفكروا فى البراهينِ التى قُدِّمت لهم ، وظلُّوا على كفرهم وعنادهم ، فاستحقُّوا عذابَ جهنم ، وقد جاءَ حذفُ المفعول فى الحالين أبلغَ فى الدلالة على المعنى وأشمل ؛ لأنه أفاد أنهم لم يسمعوا شيئا ما ، ولم يعقِلُوا شيئًا ما ؛ حتى كأنما حُرِمُوا السمْعَ والعقلَ حِرْمَانًا تامًّا .

وفى قول جميلٍ ترى المبتدأ قد حُذفَ فى : (ثابتٌ ويزيد) أى الحب ثابتٌ ويزيد ؛ ولهذا الحذف جمالُه ؛ لأنه يفيدُ أن الحبَّ الذى اشتدَّ بجميل وبرَّح به لا يعنى بثينةَ أن تذْكُرَه ؛ لأنها مطمئنةٌ إليه ، واثقةٌ منه ، ولكنْ يعنيها أن تذكَر أنه ثابتٌ لا يتحول ، وأنه يزدادُ على الأيام قوةً وثباتاً .

والحذفُ فى الأمثلة السابقة – كما رأيت – حذفٌ فى لفظة واحدة فى نطاق الجملة الواحدة .

* * *

انتقل إلى المجموعة (ج) وتأمل فى معنى الآية الأولى (أَمِ اتَّخَذُوا من دونه أولياءَ فالله هو الولىُّ) تجد أنها تُنْكِرُ على المشركينَ اتخاذَ آلهة غير الله ؛ لأن الإلهَ الحقَّ يجبُ أن يتميزَ بصفاتٍ تجعلُه أهلا للعبادة والطاعة ، وليس لآلهتهم شىءٌ من ذلك . فإن أرادُوا وَلِيًّا قادراً على النُّصْرَة وتدبير الأمر فذلك هو الله وحدَه .

فالمحذوفُ – على هذا – جملةٌ شرطية ، والتقديرُ (إن أَرادُوا وليًّا بحقٍّ فالله هو الولى) ، وقد جَمُلَ هذا الحذفُ لما فيه من توجيه الذهن إلى جواب الشَّرْط : (فاللهُ هو الوليُّ) . وجاءَ هذا الجوابُ معرف الطرفين مع ضمير الفصل ؛ ليفيد قصرَ الولاية على الله وحده ، ونفيَها عن كلٍّ ما سواه .

وفى الآية الثانية : « ولو ترَى إذ وُقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نردُّ . . من المؤْمنين » حُذف جوابُ (لو) وهو جملة . والمعنى : ولو تراهم حين يُوقَفُونَ على النار ، ويدركُونَ شدةَ عذابها ، ويتمنَّوْنَ – من هول ما رأَوْا – أَن لو عادُوا إلى الدُّنْيا ؛ لتتاحَ لهم فرصةُ التصديق والإِيمان – لو تراهم على هذه الحال لرأَيت أَمرًا هائلاً رهيبا .

والحذفُ هنا بليغُ الدلالة ؛ لأَنه يتيحُ للذهنِ أن يذهبَ فى تصوُّر هول الموقف كلَّ مذهَب ، وكأَنه شيءٌ لا يُحَدُّ ولا يحيطُ به الوصف .

انتقلْ إلى الآيةِ الثالثةِ : « مما خطيئاتِهم أُغرِقُوا فأُدْخلُوا ناراً . . . » وتأَمَّلْ تجد أنها قد عرضت موقفَ قومِ نوح ، وأَنَّهم عَصَوْه ، وأَعرَضُوا عن الحق ، واتَّبعُوا رؤَساءَهم المضلين ، الذين أَغرَوْهم بإيذائِه ، وصدُّوهم عن الاستماع إليه ، ولقد عاقبهم اللهُ بسبب هذه الخطايا الكثيرةِ التى اقترفُوها ، فأَغرقَهم الطوفانُ ، ولم يُبْقِ منهم أَحدًا ، ولهم فى الآخرةِ نارٌ حاميةٌ يَصْلَوْنَ سعيرَها ، ولا يجدُونَ من ينصرُهم ، أَو يغنى عنهم من عذابِ اللهِ شيئا .

وتستطيعُ أَن تلحَظَ الحذفَ واضحاً بين (أُغرقُوا) و(أُدخلُوا ناراً) ؛ لأَن فيه انتقالًا من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الإِغراقِ بالطوفانِ إلى الإِحراق فى نارِ جهنم ، والمحذوفُ هنا جُمَلٌ متعددة ؛ فقد : (هلكُوا ، وبُعِثُوا يومَ القيامة ، وحُوسِبُوا على معاصيهم ، فأُدْخِلُوا نارا) .

وسرُّ جمالِ هذا الحذفِ أَنه جمعَ بين الإِغراق والإِحراق ، وفاجأَ بذكرِ عذاب الدنيا مع عذابِ الآخرة ؛ حتى كأَنهما مقترنان ، وفى ذلك إيقاظٌ للعقول ، وتخويفٌ من تلكِ النهايةِ الأَليمة ، وقد جاءَ التعبيرُ بالفعلِ الماضى مع الفاء التى تفيدُ التعقيبَ فى « فأُدْخِلُوا نارًا » ، وهو يوحى باقترابِ العذابِ حتى كأَنه واقعٌ فِعْلًا .

فإذا انتقلتَ إلى الآيات الأَخيرة التى تدورُ حولَ قصة موسى - رأَيتَ أَنها تأْتى بالأَحداثِ البارزةِ ، وتدعُ الذهنَ يربط بينها بتفاصيلَ كثيرةٍ ، معروفة من القصة .

انظر إلى قوله تعالى : « أَن اقذفيه فى التابوت ، فاقذفيه فى اليَمِّ ، فلْيُلْقِه اليمُّ بالساحل » ، ثم انظر إلى قوله تعالى بعد ذلك: « وأَلْقيتُ عليكَ محبَّةً منى ، ولِتُصْنَعَ على عينى » تجد أَن المحذوفَ تفاصيلُ كثيرة ، فقد وضعْتهُ أُمه فى التابوت ، وأَلقت التابوتَ فى اليم ، ثم حَمَله التيارُ حتى وصلَ إلى قصرِ فرعون ، وهيَّأَ الله له من يلتقطُه ، وَحَاطَهُ برعايته فى أشد الأماكن خطرا عليه ؛ لأنه مكان العدُوِّ المرهوب ... فبحثُوا عن المراضِع ، وأَبى أَن يُقْبِلَ على مُرْضِعَةٍ منهن ، ثم كان أَن تقدمت أُختُه تعرضُ عليهم أَن تَدُلَّهم على من يكفلُه : « إذ تمشى أُختُك فتقولُ : هل أَدُلُّكم على من يَكْفُلُه » ، فدلتهم على أمه دون أن يعلموا أنها أمه، فرده الله إليها ؛ « كى تقر عينها ولا تحزن » .

وهكذا ترى حذفاً لكثير من التفاصيل ، وتركيزًا على النواحِى البارزة ، التى تُوحى بقدرةِ الله ، وعظمته ، وتوجِّهُ الأَنظارَ والقلوبَ إلى مواطنِ العظةِ والاعتبارِ . وفى القِصَصِ مجالٌ فسيحٌ لمثلِ هذا الحذف ، الذى يَسْهُلُ معه ربْطُ مواقفِ القصة بعضِها ببعضٍ ، مع استثارةِ الذهنِ والخيالِ إلى تصوُّرِ ما حُذِفَ من تفاصيل .

الخلاصة :

١ - الأَصلُ فى الكلام أَن تُذْكَرَ أَجزاؤُه التى تؤَدِّى معناه تامةً ، ودونَ حذف .

٢ - يأْتى الحذفُ لِغَرَضٍ بلاغى ، والمحذوفُ قد يكون :

- كلمة من جملة .
- أَوجملةً .
- أَوجملًا وفقراتٍ متعددة .

٣ - لا يجمل الحذفُ ، ولا يُعَدُّ حذفا بلاغيًّا إلا إذا ساعدَ على الإيحاءِ بمعانٍ ومشاعرَ تزيدُ الكلامَ قوةً وتأْثيرا ، وأَمْكن مع ذلك ربطُ الكلامِ بعضِه ببعضٍ ، دون أَن يَنقطِعَ خيطُ الاتصالِ الفكرىِّ فيه .

تمرينات

١ – قال تعالى :

« إِنَّ بطشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إنه هو يُبْدِئُ ويعيدُ .وهو الغفورُ الوَدُودُ . ذُو العرشِ المجيدُ . فعَّال لما يريد[1] » .

(ا) فيما تحته خط فى الآيات حذفٌ . فما المحذوف ؟

(ب) ما أثرُ هذا الحذفِ من ناحيةِ المعنى ، ومن ناحية الموسيقا ؟

٢ – وقال تعالى :

« كلاَّ إذا دُكَّتِ الأَرض دكًّا دكًّا . وجاء رَبُّكَ والملكُ صفًّا صفًّا . وجِيء يَوْمَئِذ بجهنمَ يومئذ يتذكرُ الإنسانُ وأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى[2] » .

(ا) عين مواطنَ الحذفِ فى الآيات .

(ب) ماذا أفادَ هذا الحذفُ فى كلٍّ من هذه المواطن ؟ .

٣ – لعنترة :

نُبِّئْتُ عَمْراً غيرَ شاكرِ نعمَتِي والكفرُ مخبثَةٌ لنفسِ المُنْعِمِ

ماذا فى البيتِ من حذف ؟ وما قيمتُه فى المعنى ؟ .

٤ – قال تعالى :

« وسيقَ الذين اتَّقَوْا ربَّهُمْ إلى الجَنَّةِ زُمَرًا حتى إذا جاءوها وفُتِحَتْ أَبْوابُها ، وقال لهم خَزَنَتُها سَلامٌ عليْكُمْ طِبْتُم فادْخُلُوها خَالِدين[3] » .

(ا) حُذِفَ جوابُ (إذا) فى الآية . قَدِّرِ المحذوفَ فى ضوءِ ما تضمنتهُ الآية وبين الأثرَ البلاغيَّ له .

---

(١) البروج . الآيات (١٢ – ١٦) .

(٢) سورة الفجر.(الآيات ٢١ – ٢٣) .

(٣) سورة الزمر . الآية (٧٣) .

٥ – قال تعالى فى قصةِ نوح :

« واتلُ عليهم نبأَ نوحٍ إذ قالَ لقومه : يا قومِ إن كان كبُر عليكم مَّقامى وتذكيرى بآياتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ، فَأَجْمِعُوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكُنْ أمرُكم عليكم غُمَّةً ، ثم اقْضُوا إلىَّ ولا تُنْظِرُونِ . فإنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سأَلْتُكم من أجرٍ إن أَجرِىَ إلا على اللهِ ، وأُمِرْتُ أن أكونَ من المسلمينَ . فكذَّبوهُ ، فَنَجَّيناه ومن مَّعهُ فى الفُلْكِ ، وجعلناهم خَلائِفَ ، وأَغرقْنَا الذينَ كذَّبوا بآياتِنا ، فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المُنْذَرِين[1] » .

قال تعالى فى هذه القصة : « فكذبوه فنجيناه . . » وبَيْنَ التكذيبِ والنجاة أَحداثٌ كثيرةٌ تَعرِفُها من قِصَّةِ نوح . قَدِّرِ المحذوفَ ، واذكُرِ الأثرَ البلاغىَّ لهذا الحذفِ .

(١) سورة يونس (الآيات ٧١ – ٧٣) .

القصر

(ا)

١ – قال أبو تمام :

بَصُرْتَ بالراحةِ الكبرى فلم تَرَها تُنَالُ إلا على جِسْرٍ من التعب

٢ – ولشوقى :

وإنمــا الأُمم الأَخلاق مَــا بَقِيَتْ فإن هُمُ ذَهَبَتْ أَخلاقُهُمْ ذهبوا

٣ – وقال الشاعر :

وما ارتحالك فى كسبِ الغنى سَفَرًا لكن مُقَامُكَ فى ضُر هو السَّفَر

٤ – وقال ابنُ الرومى :

يهتزُّ عِطفاه عند الحمدِ يسْمَعُه من هِزَّةِ المجد لا من هزة الطرب

٥ – وقال شوقى فى هَمْزيته النبوية :

ما جئتُ بابَكَ مادحًا بل داعيا ومن المديحِ تَضَرُّعٌ ودعاء

٦ – وقال الله تعالى :

« قُل لَّنْ يُصِيبَنَا إلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمؤمنونَ[١] » .

(ب)

ما شوقى إلا شاعر .

ما شاعرٌ إلا شوقى .

---

(١) سورة التوبة . الآية (٥١) .

التوضيح :

إذا استعرضتَ أمثلة هذا القسم ، وتأَملتَ دلالَتها وجدتَ أَنها تَشْتَرِكُ فى أَداء المعانى التى تحملُها أَداءً مؤَكَّداً . فمن أَين اكتسبت ذلك ؟

– انظر إِلى المثالِ الأَول تجدْ أَن أَبا تمام يخاطبُ الخليفةَ العباسيَّ المعتصمَ بالله ويمدحُه ببعدِ النظر ، والجدِّ فى الأَمر ؛ فقد أَدرك ببصيرته النافذة أَن النصرَ طريقُه الجَهْد والمشقة ، وأَن الراحةَ الكبرى طريقُها التعب والكد .

وقد أَدَّى الشاعرُ هذا المعنى فى قوة وتأْكيد بقوله : « فلم تَرَهَا تنال إِلا على جِسْرٍ من التعب » ؛ إِذ جعلَ نَيْلَ الراحةِ الكبرى مقصورًا على طريقٍ واحد لا يتعداه هو طريقُ التعب ، والذى أَفادَ هذا القصْر هو استخدامُ أَداة النفى (لم) مع أَداة الاستثناء (إِلا) .

– وفى المثالِ الثانى جعل شوقى الأَخلاق أَساس بقاء الأُمم وسرَّ تقدمها ، وجعل ذَهَابَ الأَخلاقِ أَى فسادَها وانحلالَها إِيذاناً بتأَخُّرِ الأُممِ وفنائِها ، وقد آثرَ طريقَ القصر فى التعبير عن هذا المعنى ، فقال : (وإِنما الأُمم الأَخلاق) ، وبذلك أَدَّاه أَداءً قويًّا مؤَكداً حين قصَر الأُمم وبقاءها على الأَخلاق واستقامتها ، ومن اليسير أَن تدركَ أَن الذى أَفاد هذا القصرَ هو لفظ (إِنما) .

– وتأَمل البيتَ الثالثَ تجد أَن الشاعر أَرادَ أَن يبين أَن السفر ليس فى الانتقالِ والارتحالِ من بلدٍ إِلى بلد طلبًا للمال ، وسعيًا وراءَ الغنى ، ولكن السفرَ الحقيقيَّ المنطوىَ على العناء والمشقةِ هو الإِقامةُ على ذلٍّ وحرمان . ولعلك تلحَظُ أَن التعبيرَ قوىُّ الدلالة على المعنى ؛ لما فيه من قصر السفر على المقَامِ فى ضُرٍّ ، والذى أَفادَ هذا القصرَ هو العطف بالحرف (لكن) .

– وابن الرومىِّ فى البيتِ الرابعِ جعلَ الممدوحَ يهتز لسَماع الثناء عليه لا طربا لهذا الثناء ، ولكنها هِزة الكرم يحسها الكريم ، وهزة المجد يشعر بها الماجد

العظيم ، وأَكَّدَ الشاعر هذا المعنى بأُسلوبِ القصر « من هِزّةِ المجدِ لا من هِزةِ الطرب » ، والذى أَفاد القصرَ هنا العطفُ بلا .

– وشوقى فى البيتِ الخامس جَعلَ مدحَه للرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ دعاءً وتضرُّعًا ، واستخدمَ أُسلوب القصر فى التعبيرِ عن المعنى فزادَه قوةً وتأْكيداً ، والذى أَفاد هذا القصر هو العطفُ بالحرف (بل) .

– وفى الآية الكريمة ترى قصرًا فى : « وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » ، وهو يفيد أَن التوكلَ الحقَّ من المؤْمنين الصادقين مقصور على الله وحده دون سواه ، والذى أَفاد هذا القصرَ هنا هو تقديمُ الجار والمجرور على الفعلِ أَى تقديم ماحقه التأْخير .

(ب)

انظُرْ إلى مثالى هـذا القسم تجـد أَن كلاً منهمـا أسلوبُ قَصْرٍ طريقُه النفى والاستثناء ، ولكنَّ بينهما فرقًا دقيقًا فى المعنى ، ينبغى أَن تتنبه له ؛ فالمثال الأَول يفيدُ أَن شوقى شاعرٌ وليس كاتباً أَو قصَّاصا مثلا ، أَما المثال الثانى فيفيدُ المبالغةَ فى مدح شوقِى ، وأَنه هو الشاعر الحقيقىُّ ، وليسَ هناك شاعر غيرُه يبلغُ منزلتَه .

* * *

الخلاصة :

١ – القصرُ من أَساليب التوكيد ، والتوكيدُ فيه ناشئٌ من قصرِ شىء على شىء آخر .

٢ – من أَشهر طُرُق القصر : النفىُ والاستثناء ، وإِنما ، والعطف بلا ، أَو بل ، أَو لكن ، وتقديم ماحقُّه التأْخير .

٣ – من هذا القصر ما هو حقيقىٌّ ، يختصُّ فيه المقصورُ بالمقصورِ عليه ؛ بحيث لا يتجاوزُه إِلى غيره ، ومنه ما يدلُّ على تخصيص المقصورِ بالمقصور عليه تخصيصا قويًّا مؤكَّدًا .

٤ – سرُّ الجمال فى القصر ما ينطوى عليه من دلالة تزيدُ الكلام قوةً وتأْكيداً ، مع خُلُوِّه من المؤَكّدَاتِ المأْلوفة .

تمرينات

١ – قال الله تعالى :

« قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ، وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكم مَّرْجِعكم فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفونَ » .

(ا) عين ما فى الآية من أساليب القصر ، ووضح دِلالة كل منها .

(ب) بين ما فيه من جمال بلاغى .

٢ – لنذير الحسامى :

أَنــا للكوخِ وللسر ... دابِ لا للقَصْرِ فَنِّى
ولأَنّاتِ الحَزَانى ... أَهْدِمُ الدنيا وأَبنى
أَنــا للبؤْسِ وفى البؤْ ... سِ أَعاصيرى ومُزْنى
وعلى الغَبْنِ وفى الغَبْـ ... ـنِ نِضالى ومِجَنِّى
قَلَمِى منى ولن يُشْـ ... ـتَقَّ إِلا البأْسُ منى
قاتلٌ فى الحقِّ يمشى ... لم أَخُنْهُ أَو يَخُنِّى

(ا) بم يفتخرُ الشاعر ؟ وعلى أَى ملامحِ شخصيته يدلُّ ذلك ؟

(ب) عين أَساليبَ القصرِ فى الأَبيات ؟

(ج) بين دِلالَةَ كلِّ أُسلوب منها ؟

(د) تحيطُ بأَساليب القصر فى الأَبيات قرائنُ تزيدُه جمالا . وضح ذلك ؟

٣ – ما صديقٌ لى إِلا على

ما علىٌّ إِلا صديقٌ لى

(ا) وضح المعنى فى كلٍّ من التعبيرين ؟

(ب) أَيهما أَقوى فى الدلالة على المعنى ؟

٤ – للمتنبِّى يخاطبُ سيفَ الدولة :

أَجِزْنِى إِذا أُنْشِدْتَ شعراً فإنما ... أَنا الطائرُ المحكىُّ والآخَرُ الصَّدَى

وما الدهرُ إلا من رُوَاةِ قصائِدى ... إذا قلتُ شعراً أَصبحَ الدهرُ مُنْشدا

(ا) ماذا يطلبُ المتنبِّى من سيفِ الدولة ؟

(ب) وبماذا يفتخرُ فى البيت الثانى ؟

(جـ) ولماذا آثرَ أُسلوب القصر فى كل من البيتين ؟

(د) فى البيت الثانى مبالغة . وضحها وبين رأْيك فيها ؟

الإيجاز والإطناب والمساواة

حين يريد المتحدث أن يؤدى إلى الناس معنى من المعانى يعبر عنه فى إحدى صور ثلاث :

أولا : المساواة : وهى كون الألفاظ على قدر المعانى (مساوية لها) .

ثانيا : الإيجاز : وهو التعبير عن المعانى الكثيرة بألفاظ قليلة تؤدى الغرض المطلوب .

ثالثا : الإطناب : وهو – على عكس الإيجاز – أداء المعنى بألفاظ أكثر منه، على أن تكون ذات فائدة فى الكلام .

المساواة

١ – من نصح الولاة والحكام :

أما بعد : فلتكن فى عملك وسيرتك قدوة صالحة لغيرك ، وليكن حياؤك من الله شديداً بقدر قربك منه ، وليكن خوفك منه عظيما بقدر اقتداره عليك .

٢ – قال تعالى :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلا » .

٣ – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« رحم الله عبدا قال خيراً فغنِم ، أوسكت فسلِم » .

٤ – للنابغة فى الاعتذار :

فإنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

٥ – للمتنبي فى شكوى الزمان :

صحِب الناس قبلنا ذا الزمانـا   وعناهم من شأنه ما عنانـا

وتولــوا بغصة كلُّهم منـــــــه وإن سر بعضهم أحيانــا

هذه أمثلة تجد الألفاظ فيها على قدر معانيها ، وتلك هى المساواة ، وليست المساواة فى حاجة إلى شرح أو إيضاح ؛ فهى الأصل الذى يأتى أكثر الكلام على صورته .

الإيجاز

إيجاز الحذف

١ – أخاك والإحسان إليه .
٢ – أسعدٌ أم سُعَيد ؟
٣ – قال تعالى : « حتى إذا بلَغتِ التَّراقىَ . . » .
٤ – « فأمَّا مَن أَعْطى واتَّقى . . »
٥ – لقد سعدت البلاد فى عهد الثورة .
٦ – تا الله تفتأ تذكر يوسف .
٧ – يكافأ الطالب إذا كان أول الناجحين .
٨ – قال تعالى فى قصة سليمان عليه السلام :
« اذهَبْ بكتابى هذا فألقِهْ إليهم ، ثم تولَّ عنهم فانظرْ ماذا يَرْجعون . قالت:يأيُّها الملأُ إنى أُلْقِىَ إلىَّ كتابٌ كريمٌ » .

التوضيح :

تأمل المثال (١) تجد فى الكلام حذفاً ، والمحذوف هنا فعل ، والتقدير : الزَم أخاك .

وتأمل المثال (٢) وهو هذا المثل العربى الذى يضرب فى النجاح والخيبة – تجد فيه حذفاً ، والمحذوف اسم يقع مبتدأ ، والتقدير : أسعد أنت أم سُعَيد ؟

وتأمل أيضا المثال (٣) تجد أن فى الآية الكريمة محذوفا ، وهذا المحذوف اسم يقع فاعلا ، والتقدير : حتى إذا بلغت الروح التراقى .

وانظر المثال (٤) تلمس فى الآية الكريمة محذوفا أيضا ، وهذا المحذوف هو المفعول ، والتقدير : فأما من أعطى الفقير ، واتقى الله .

وكذلك المثال (٥) تجد فيه حذفا ، والمحذوف مضاف ، والتقدير : لقد سعد أهل البلاد . . .

والمثال (٦) تجد المحذوف فيه حرفا ، والتقدير : تالله لا تفتأ . .

أما المثال (٧) فإذا تأملناه بإمعان وجدنا أن المحذوف فيه جملة ، هى جملة جواب الشرط وقد حذفت لدلالة الكلام عليها .

والمثال (٨) إذا تأملناه مَلِيًّا لمسنا أن المحذوف فيه جمل لا جملة واحدة ، والتقدير . فذهب الهدهد بالكتاب ، فألقاه إلى بلقيس وقومها ، فلما قرأته وفهمت ما فيه قالت يأيها الملأ . .

الخلاصة :

يتبين مما سبق أن إيجاز الحذف يكون بحذف كلمة ، وقد تكون هذه الكلمة اسما أو فعلا أو حرفاً . ويكون كذلك بحذف جملة أو أكثر .

إيجاز القصر

١ – من القرآن الكريم : « خذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين »
« . .والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس »

٢ – من الحديث الشريف : ترك الشر صدقه .
الحياء لا يأتى إلا بخير .
الحديث ذو شجون .

٣ – من الحكم والأمثال : سبق السيف العَذَل .
إن البلاء مُوَكَّلٌ بالمنطق .
لكل مقام مقال .
وقع الرشيد إلى أحد ولاته : « داو جرحك لا يتسع »

٤ – من التوقيعات : ومن التوقيعات المماثلة : « كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت » .

٥ – من الوصايا والنصائح : من أُعطىَ أربعا لم يُمنع أربعا : من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيَرَة ، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب .

التوضيح :

إذا نظرت إلى المثالين فى رقم (١) لا تجد فى الآيتين الكريمتين حذفا ، ولكنك تجد فيهما إيجازا يتمثل فى الاختصار ، وقصر الألفاظ وتحميلها معانى كثيرة .

فى الأولى نجد أن الأمر بالعفو يندرج تحته إرضاء الله ، ومجاملة الناس ، والرفق فى كل الأمور ، والمسامحة ، والإغضاء عن المساوئ . وفى الأمر بالمعروف

تقوى الله ، وصلة الرحم ، والمشاركة فى إصلاح الفرد والمجتمع . . ، وفى الإعراض عن الجهال الحلم والصبر وكظم الغيظ . .

وفى الثانية نجد أن قوله تعالى:« بما ينفع الناس » هذا القول جمع أنواع المنافع ، وصنوف المرافق التى لا تقع تحت الحصر.

وإذا نظرت إلى المثالين فى رقم (٢) وجدت أن الحديث الأول قد جمع تحت لفظ « الشر» الغيبة والنميمة ، والكذب والغدر ، والخداع ، والحسد ، والبغى ، والظلم . . . وغير ذلك .

وكذلك الحديث الثانى جمع كل أنواع الخير فى لفظ واحد .

وإذا تأملنا الأمثلة فى رقم (٣) وجدنا مجموعة من الحكم ، والأمثال السائرة ، يدل كل منها على معنى كثير فى لفظ قليل ، فالأول يدل على أن الحديث يدعو بعضه بعضا ، وأن طرَفا منه يذكِّر بطرَفٍ آخر . . وهكذا .

والثانى يفيد أن اللوم على الفائت لا يجدى ؛ فلا منفعة تُرجى من ورائه ، إذ أن ما فات لا يمكن رده .

والثالث معناه أن المصائبَ كثيرا ما يكون سببها عثرة اللسان ؛ فقد تضع صاحبها فى غياهب السجون ، وقد تكون سببا فى ضياع مال ، أو أهل ، أو ولد ، بل قد تكون مدعاة إلى أن يفقد الإنسان نفسه .

والرابع يفيد أن لكل كلام ما يناسبه من ظروف ، ولكل ملابسة ما يلائمها من حديث ، فللحزن ما يناسبه ، وللفرح ما يلائمه ، والتحدث إلى العامَّة غير التحدث إلى الخاصة . . وهكذا .

وإذا تأملنا الأمثلة فى رقم (٤) نجدُها من قبيل التوقيعات الموجزة التى كان يعلق بها الخلفاء ، والأمراء ، والوزراء على الكتب التى تعرض عليهم – تعليقا يحمل معانى كثيرة فى لفظ قصير يتسم بالسلاسة ، والوضوح ، والقوة ، وحسن السبك ، فيكون له وقعه وتأثيره .

وإذا نظرنا إلى المثال (٥) وجدناه نصيحة توخى فيها صاحبها قِصَرَها وإيجازها لتبلغ فى النفوس مبلغها .

* **

الخلاصة :

مما سبق يتبين ما يلي :

إيجاز القصر هو عرض المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة ، وهو من الأساليب التى تتفاوت فيها مراتب البلغاء ، ونجده كثيرا فى القرآن والحديث ، والفنون الأدبية ، وأكثر ما يكون فى الحكم ، والأمثال ، والتوقيعات ، وبعض الوصايا والنصائح ، وكذلك فى عناوين الموضوعات ، وفى البرقيات ، وتلخيص كل ما يحتاج بطبيعته إلى تلخيص .

الإطناب

١ – قال تعالى : « الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة » .

٢ – إن عليًّا – بلَّغك الله الآمال – وصل إلى قمة المجد .

* * *

٣ – ذكرت أخى فعاودنى صداع الرأس والوصب

٤ – ليس للكسول نصيب ولاحظ فى النجاح .

التوضيح :

إذا تأملت المثال (١) وجدت أن لفظَ « الحاقة » قد تكرر فى الآية الكريمة ثلاث مرات ، وهذا التكرار زيادة فى الكلام جاءت لفائدة هى تفخيم شأن القيامة وما فيها من أهوال . والزيادة التى من هذا النوع يسميها البلاَغيون بالإطناب .

وإذا تأملت أيضا المثال (٢) لمست أن جملة « بلغك الله الآمال » هى جملة أضيفت إلى المعنى الأصلى ؛ فهى زيادة فى الألفاظ ، وهذه الزيادة لها فائدة فى الكلام إذ المقصود بها الدعاء ، فهى الأخرى نوع من الإطناب .

* * *

ولكن إذا نظرت إلى المثال (٣) وجدت أن لفظ الرأس هنا زائد فى الكلام ، وزيادته لا فائدة لها ؛ إذ أن الصداع لا يكون إلا فى الرأس ، وهذه الزيادة متعينة معروفة كما ترى . وذلك النوع من الزيادة يسميه البلاغيون بالحشو.

وإذا نظرت إلى المثال (٤) وجدت أن فى الكلام زيادة غير متعينة ؛ فالنصيب والحظ بمعنى واحد ، وهذا ما يسميه البلاغيون بالتطويل .

الخلاصة :

الإطناب هو زيادة الألفاظ على المعنى زيادةً لها فائدة فى الكلام .

والحشو هو زيادة الألفاظ على المعنى زيادةً متعينة ، لا فائدة منها ، ولا يفسُد المعنى بها .

والتطويل يختلف عن الحشو فى أن الزيادة غير متعينة فيه .

أنواع الإطناب

والغرض البلاغى لكل نوع

١ – قال تعالى : « وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوعٌ مصبحين » .

٢ – وقال سبحانه : « فوسوس إليه الشيطانُ قال يا آدمُ هل أدلُّكَ على شجرة الخُلد ومُلْك لا يبلَى » .

٣ – اقرأ تاريخ خلفاء المسلمين وتاريخ عمر .

٤ – « إن الله يأمر بالعدلِ والإحسان ، وإيتاءِ ذى القُربَى ، وينهى عن الفحشاءِ والمنكر والبغى »

٥ – كانت خلافة أبى بكرٍ والخلفاء الراشدين مثلاً أعلى للحكم فى الإسلام .

٦ – « وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم » .

٧ – العمل شرف . العمل شرف .

٨ – كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون .

٩ – رأيتُ الناس على اختلاف مشاربهم ، وتباين طبائعهم ، وتفاوت حظهم من العلم والمعرفة ، وحسن التهذيب ، رأيتهم يقدرون الأغنياءَ أكثرَ مما يقدرون العلماء .

١٠ – كن أيها الطالب – وفقك الله – قدوة صالحة لزملائك .

١١ – أدعو الله – سبحانه – أن يهبَ لك التوفيق والسداد .

١٢ – « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم .
إنه لقرآن كريم . . . »

١٣ – أثنى علىَّ بما علمتِ فإننى   سمح مخالقتى إذا لم أُظلَم

١٤ – فسَقى ديارَكِ غيرَ مفسدها   صوبُ الربيع وديمـــةٌ تهمى

١٥ – كافأت محمدً الجدَّه ، وهل يكافأ إلا المجدُّون ؟

١٦ – « وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد أفإن متّ فهم الخالدون ؟ » .
١٧ – إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه ؟
١٨ – « وما أبرّئُ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء »
١٩ – من يَلق يوما على علاتِه هَرِماً يلق السماحة منه والندى خُلقا
٢٠ – « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » .

* * *

التوضيح :

تأمل المثالين (١) ، (٢) تجد أن « الأمر » قد أبهم فى الآية الأولى لتوجيه الذهن إليه ، ثم وضحته الآية بعد ذلك تهويلا لأمر العذاب .

وتجد فى الآية الثانية أن قوله تعالى : « فوسوس إليه الشيطان » كلام مجمل جاء تفصيله وتوضيحه بالكلام الذى بعده ، والفائدة المترتبة على ذلك أن يدرك المخاطب المعنى فى صورتين . إحداهما مبهمة والأخرى موضحة ، ولهذا وقعه فى النفوس .

وتأمل المثالين (٣) ، (٤) تجد أنه قد ورد ذكر الخلفاء وهو عام ، وجاء بعده ذكرُ « عمر » وهو خاص ، وقد جاء الخاص بعد العام تنبيها على أهميته وفضله .

وكذلك الشأن فى الآية الكريمة ، ففيها إطناب بذكر الخاص بعد العام ؛ لأن إيتاءَ ذى القربى داخل فى الإحسان ، ولأن المنكرَ والبغى داخلان فى الفحشاء ، وفائدة ذلك هى الاهتمام بالخاص .

وتأمل المثالين (٥) ، (٦) تجد أنه فى المثال الأول جاء ذكر أبى بكر وهو خاص ثم جاء بعده « الخلفاء الراشدون » وهو عام .

وكذلك الشأن فى الآية الكريمة ؛ فقد ذكر الخاص « موسى وعيسى » وذكر بعده العام « النبيون » .

والمراد فى المثالين إفادة الشمول والعموم ، مع الاهتمام بالخاص بذكره مرة

منفردا ، ومرة مندرجا تحت العام .

وانظر إلى الأمثلة (٧ ، ٨ ، ٩) تجد فى المثال (٧) أن الألفاظ زائدة على المعنى عن طريق التكرار ، الذى قصد من ورائه الحث على العمل ، والترغيب فيه .

وتجد مثل هذا التكرار فى الآية الكريمة (٨) : ولكن المراد به تأكيد الإنذار ليكون أشد تخويفا ، وأبلغ أثرا .

أما المثال (٩) فإنك تجد فيه تكراراً فى جملة « رأيتهم » والدافع إليه هو طولُ الفصل ، وربط أول الكلام بآخره ربطا محكماً وثيقا .

وانظر إلى الأمثلة (١٠ ، ١١ ، ١٢) تجد أنه قد أتى فى المثال (١٠) بجملة معترضة زائدة على المعنى الأصلى (وفقك الله) والمقصود بها الدعاء .

وتلمس فى المثال (١١) أن الاعتراض يتمثل فى (سبحانه) ، والمراد به التقديس والتنزيه .

وفى المثال (١٢) فى قوله تعالى « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » اعتراضٌ بقوله : « لو تعلمون » . وقد أريد به تفخيم أمر هذا القسم ، وتعظيم المقسم عليه ، وتأكيد رفعة شأنه .

وانظر أيضا إلى المثالين (١٣ ، ١٤) تجد فى المثال (١٣) أن الشاعر « عنترة » خَشِيَ أن يُفهم من قوله « سمح مخالفتى » أنه سهل ليِّن فى كل الأحوال ، حتى إذا ما أوذى أوظلم ؛ ولهذا احترس ودفع هذا الوهم بقوله « إذا لم أظلم » .

وتجد فى المثال (١٤) أن الشاعر الآخر خَشِيَ أن يفهم من تعميم لفظ المطر أنه قد يكون مفسداً مسبباً الخراب والدمار ، فدفع هذا الوهم بقوله « غير مفسدها » .

وهذا ما يسميه البلاغيون بالاحتراس .

دققْ النظر فى الأمثلة (١٥ – ١٨) تجد أن المثالين (١٥ ، ١٦) قد ختم كل منهما بجملة تشتمل على معنى الجملة السابقة عليها ؛ فهى قد جاءت تذييلا لها ، قصدَ تأكيدها ، وكل جملة منهما لا تجرى مجرى المثل ؛ لأنها لا يفهم معناها إلا بما قبلها .

وتجد أن المثالين (١٧ ، ١٨) قد ختم كلٌّ منهما بجملة هى تذييل قصد به أيضا تأكيد المعنى السابق عليها ، ولكنها هنا يمكن أن تجرى مجرى المثل : « أىّ

الناس تصفو مشاربه » ، « إن النفس لأمارة بالسوء »؛وذلك لاستقلالها فى معناها ، وجريانها على الألسنة .

وتأمل المثالين (١٩ ، ٢٠) تجد نوعا من الإطناب يتمم المعنى الأصلى فى الكلام ؛ فالشاعر « زهير » حين يريد أن يمدح هرمَ بنَ سنان بالجود يقول : إنك حين تلقاه فى أى يوم تجده منبع الكرم والسخاء ، ولكنه لا يقتصر على هذا بل يريد أن يتمم المعنى ، ويبالغ فيه ، فيقول : إن الذى يلقاه على علاته أى على كل حال من غنى وفقر . . يجده مثلا أعلى فى كرمه وجوده .

وفى الآية الكريمة تجد أن إطعام الطعام على حبهم له ، وحاجتهم الشديدة إليه أدل على الكرم مما لو كانوا فى غنى عنه .

وهذا ما يسميه البلاغيون بالتتميم .

* * *

الخلاصة :

للإطناب أنواع ذات أغراض بلاغية منها :

١ — الإيضاح بعد الإبهام للتفخيم ، وتنبيه الأذهان إليه ، وإكسابه تأثيرا قويا فى النفوس .

٢ — ذكر الخاص بعد العام للاهتمام بالخاص ، والتنبيه إلى أهميته وفضله .

٣ — ذكرُ العام بعد الخاص ، وهدفه التعميم والشمول ، مع الاهتمام بالخاص الذى يذكر وحده مرة ، وداخلا فى العامّ مرة أخرى .

٤ — التكرارُ ، وذلك فى مقام التفخيم ، والتأكيد ، وتقريرِ المعنى فى النفس ، وقد يكون لطول الفصل ، أوغير ذلك من أغراض .

٥ — الاعتراض ، وذلك للدعاء ، أوالتنزيه ، أوالتفخيم والتعظيم . . وغير ذلك .

٦ — الاحتراس ، وهو يأتى فى كلام يوهم خلاف المقصود ؛ ليدفع ذلك الوهم .

٧ — التذييل : وهو التعقيب على جملة بجملة أخرى تشتمل على معناها لتأكيد منطوق الأولى أومفهومها .

٨ — التتميم ، وهوزيادة على العبارة تنتهى بمعناها إلى المبالغة .

تمرينات

(١)

بين ما فى الأمثلة الآتية من إيجاز أو إطناب أو مساواة :

(ا) « فمن يعملْ مثقالَ ذرة خيراً يره ، ومن يعملْ مثقالَ ذَرة شرًّا يره » .

(ب) « كلُّ امرئٍ بما كسب رهين » .

(جـ) « دع ما يَريبُك إلى ما لا يَريبُك » .

(د) فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

(هـ) « حتى إذا بلغتِ الحلقومَ ، وأنتم حينئذٍ تنظرون » .

(و) إذا المرءُ لم يَدنسْ من اللؤم عرضُه فكل رداءٍ يرتديه جميلُ

وإن هو لم يحمل على النفس ضَيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

(٢)

وضح ما فى الأمثلة الآتية من إطناب أو حشو أو تطويل .

(ا) « القارِعة ما القارعةُ وما أدراكَ ما القارعة » .

(ب) وأعلم علم اليوم والأمس قبلَه ولكنَّنى عن علم ما فى غدٍ عمِ

(جـ) وألفى قولها كذبا ومَيْنا .

(د) لم يُبْق جودُك لى شيئا أؤمِّلُه تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

(هـ) قالت أمامةُ لا تجزعْ فقلت لها إنَّ العزاء وإن الصبرَ قد غُلِبا

(و) « حافظوا على الصّلَوات والصَّلاةِ الوُسْطَى » .

(٣)

بين نوع الإيجاز فى الأمثلة الآتية ، وإذا كان إيجاز حذف فبين المحذوف :

(ا) « ولكم فى القصاص حياة »

(ب) « وحرَّمنا عليه المراضع من قبلُ ، فقالت: « هل أدلكم على أهلِ بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمِّه كى تَقَرَّعينُها ولا تحزْن » .

(ج) المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء .

(د) فلا والله أشربها حياتى ولا أسقى بهـا أبـدا نديما

(هـ) وقع جعفر البرمكى فى شأن محبوس :

« العدل أوقعه ، والتوبة تطلقه » .

(و) أماوىَّ ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حَشْرجَت يوما وضاق بها الصدر ؟

(ز) إن من البيان لسحرا – الحرب خدعة – حَمِىَ الوطيس .

(ح) «ألاله الخَلْق والأمر » .

(ط) ولوْلا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتهُ وأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رحيم » .

(٤)

وضح نوع الإطناب ، والغرضَ منه فيما يأتى :

(ا) « يأيها الذين آمَنوا هل أدُلكم على تجارة تُنْجيكُم من عذابٍ أليم . تؤمنون باللهِ ورسولهِ ، وتجاهدون فى سبيل اللهِ بأموالكم وأنفسكم » .

(ب) أمدَّكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين .

(ج) ولستَ بمستبْق أخا لاتَلُمه علَى شَعَثٍ أى الرجال المهذَّب

(د) « رب اغفرِ لى ولوالدىَّ ، ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات » .

(هـ) المـرءُ يرغبُ فى الحيـا ةِ وطولُ عيشٍ قـد يضرُّهْ
تفـنَى بشاشته ويبقى بعـدَ طول العيش مُـرُّه
وتسوءُه الأيـام حتى ما يـرى شيئًا يسرُّه

(و) « واضمم يدَك إلى جناحِك تخرُجْ بيضاءَ من غيرسوء » .

(ز) نفسُ عِصامٍ سوَّدت عصامًا وعوَّدتْه الكرَّ والإقداما

(ح) إن أخى – وقاك الله السوء – مريض .

(ط) صَببْنا عليها ظالمين سياطنا فطارتْ بها أيـدٍ سراعٌ وأرجلُ

(ى) أسِجْنا وبُعدًا واشتياقًا وغربةً ونأىَ حبيب – إنَّ ذا لعظيم
وإنَّ امرأً دامت مواثيق عهدِه على مثلِ هذا – إنه لكريم

(٥)

(ا) هات مثالين للتذييل الذى يجرى مجرى المثل ، وآخرَين للتذييل الذى لا يجرى مجرى المثل .

(ب) كوِّن ثلاث جمل : بالأولى إطناب بالتكرار ، وبالثانية حشو ، وبالثالثة تطويل . ثم بين الفرق بين الأنواع الثلاثة .

(ج) إيت بمثال لإيجاز القِصر ، وثان لإيجاز الحذف ، وثالث للمساواة .

(د) وضح الفرق بين التذييل ، والاعتراض ، والاحتراس ، والتتميم . مع التمثيل .

(هـ) بين عيوب الكلام فيما يأتى :

١ – ترسمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع
٢ – أصيب فلان بعمى فى عينيه ، وصمم فى أذنيه .
٣ – أقمنا بها يوما ويوما وثالثا ويوماً له يومُ التَّرحّل خامسُ

* * *

السجع

١ – قال عليه الصلاة والسلام :

« رحِم اللهُ عبداً قال خيراً فغَنِم ، أوسَكَتَ فسَلِم » .

٢ – وقال :

آيةُ[١] المنافِق ثلاثٌ : « إذا حدَّثَ كَذَبَ ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ ، وإذا خاصم فَجَر[٢] » .

٣ – لابن العميد فى التهديدِ واللوم :

« كتابى إليك وأنا مترجِّحٌ بينَ طَمَعٍ فيكَ ويأْسٍ منك ، وإقبالٍ عليك ، وإعراضٍ عنكَ ؛ فإنك تُدِلُّ[٣] بسابِقِ حُرْمَة ، وتَمُتُّ بسالِف خِدْمة ، أيسرُهما يوجبُ رعاية ، ويقتضِى محافظةً وعناية ، ثم تَشْفَعُهُما[٤] بحادثِ غلول[٥] وخيانَة ، وتُتْبِعُهُما بآنِفِ خلافٍ ومعصية ، وأدنى ذلك يُحبطُ[٦] أعمالَك ، ويَسحَقُ كلَّ ما يُرْعَى لك » .

٤ – لابن حبيبٍ الحلبيِّ فى وصفِ سفينة :

يا لهـا سفينةً ! على الأموالِ أمينة . ذات دُسُرٍ[٧] وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتَطيرُ بغَيْرِ جَنَاح ، وتَعْتَاضُ عن الحادِى بالمَلَّاح . تَخُوض[٨] وتَلْعَب ، وتَرِدُ ولا تَشْرَب . لها قِلاعٌ كالقلاع ، وشِرَاعٌ يحجُبُ الشُّعاع » .

---

(١) آية : علامة .

(٢) فجر : أسرف فى الخصومة .

(٣) تدل : الإدلال فرط الثقة الذى يدفع إلى الإثقال .

(٤) تشفعهما : تجمع إليهما .

(٥) غلول : خيانة .

(٦) يحبط : يبطل .

(٧) الدسر : خيوط من ليف تشد بها ألواح السفينة أوهى المسامير .

(٨) تخوض : تنزل الماء وتمشى فيه .

٥ – لطه حسين يصوّرُ رحلَة أُمِّ أَيمنَ حاضنةِ رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من مكةَ إلى المدينةِ لِتلْحَقَ به :

إنها لتَسْعَى مَا وَسِعَها السَّعْيُ ، ولكنَّ الأَمدَ بَعيد ، والجَهْدَ شَدِيد ، والماءَ منقَطِع ، والظمأَ مُحْرِق ، وجسمَها ضعيفٌ لا يثْبُتُ لهذه العادياتِ التى لا تثبُتُ لها أَجسامُ الناس ، ولكنها تَسْعَى لا يَائِسةً ولا مُسْتَسْلِمَة .

التوضيح :

تأَمل النماذجَ السابقةَ تجدْ أَنَّ الأَول وهو لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، فيه دعاءٌ بالرحمةِ لمن يتحدثُ بالخيرِ فيغْنَمُ ، أَويَسْكُتَ فيَسْلَم .

وقد سيق الحديثُ فى جملتين مُرَكزَتَين ، عرضتْ كلٌّ منهما ناحية من الفكرة ، يقف عندها السامعُ والقارئ ، مطمئنًّا إلى الوقوفِ عليها لاكتمال المعنَى الجزئى فيها ، وقد زادَ من جمال هذه الوقفةِ الفكرية أَن الحرفَ الأَخير متَّحدٌ فى الجملتين ، وبذلك ساعدَ الإِيقَاعُ الموسيقىُّ على استقرارِ هذه الفكرة فى النفس ، وارتياحِها إليها .

ومثل هذا تجده فى الحديث الثانى له عليه السلام ، وهو مكونٌ من جُمَلٍ ثلاث تعرض علاماتِ المنافق ، وتُلَخِّصُ ذلكَ فى أَنه يكذب إذا تَحَدَّثَ ، ويخونُ العهدَ إذا عاهدَ ، ويغالى ويسرفُ فى الخصومةِ إذا خاصم .

وفى الجملتين الأَخيرتَين من الحديث تَلْحَظُ أَن كلمةَ « غدر » أقوى فى الدلالة على المعنى فى هذا المقام من كلمةِ « خان » ، وأَن كلمة « فَجَر » أَقوى فى مَوْضعها من كلمة « أَسرفَ » أَو « غَالى » ، وإلى جانب هذه القوةِ ترى اتحاداً فى الحرفِ الأَخير من هاتين الجملتين ، وبذلك زادَ الإِيقاعُ – الموسيقىُّ لهما من قوةِ وقعِ المعنى فى النفس .

* * *

واتحاد الجملتين أوالجمل المتواليةِ فى الحرفِ الأَخير هوالذى يسمَّى « السجع » ،

والسجعُ الفنِّى الجميلُ هو الذى يتطلبهُ المعنى ، وهو الذى يزيدُ الفكرةَ قوةً بإيقاعه الموسيقى .

* * *

انظر إلى النموذجِ الثالث ، وهو لابن العميد تجدْ أَن الكاتبَ حرَص على أَن يسوق المعنى الواحدَ فى جملتين مسجوعتين . « أَنا مترجح بين طمعٍ فيك ويأْس منك ، وإِقبال عليك وإِدبارٍ عنك » . « تدِلُّ بسابِق حُرْمة وتَمُتُّ بسالِفِ خدمة » ، ولم يكد يخرجُ على هذا النهج .

وليسَ من شكٍّ أَنه وقَف طويلًا ، يتأَنَّى ويتأَنَّق ، لكى يستقيمَ له أُسلوبُهُ الذى التزم فيه ، أَو كادَ يلتزمُ فيه السجع ، وقد ساعدته عليه أُذُنه الموسيقية ، ومعانيه المواتيةُ له ، وإِن لم يسلم من التكلف ، كما ترى فى قوله :

« وأَدنى ذلك يُحْبطُ أَعمالَك ، ويسحقُ كلَّ ما يُرْعى لك » .

* * *

انتقل إلى النموذج الرابع تَجِدْ وصف سفينة ، لابن حبيبٍ الحلبى ، الذى ظهر فى عصر العثمانيين ، أَضعفِ عصور الأدب العربىِّ . وتجد أَن الكاتب التزم السجعَ التزاماً ، حتى ليخيلُ إِليك أَن وظيفةَ السجع قد انعكست انعكاسا ، فبدلا من أَن يكونَ تابعاً للفكرة أَصبحت الفكرةُ تابعةً له . تأَمل قوله : « ذات دُسُرٍ وأَلواح ، تجرى مع الرياح ، وتطيرُ بغيرِ جناح » يتضحُ لك أَن الحرص على أَن تنتهى الكلمة الأَخيرة فى هذه التراكيبِ الثلاثة بالحاء بعد الأَلف ، ساقه إلى هذه المعانى السطحيةِ التافهةِ التى لا غَنَاءَ لها ، وتستطيعُ أَن تلمحَ ذلكَ فى سائرِ وصفه .

* * *

فإِذا انتقلتَ إلى النموذج الأَخير ، وهو لطه حسين فى وصف الحاضنةِ ورحلتها –

وجدتَ أُسلوبًا تَطَّرِدُ فيه المعانى ، وينسابُ فى تَرَسُّلٍ جميل له وقعهُ الموسيقى العذبُ ، ولكن الموسيقَا فيه تعتمدُ على تأْليفِ الكلمات ، أُو بناءِ الجمل المتوازنةِ أُو المتقاربة الإيقاع ، ولا تعتمدُ على السجعِ إلا نادراً ، وحيثُ يمليه المعنى ، كما فى قوله : « الأَمد بعيد ، والجهد شديد » . بما تعطى الكلمتان الأَخيرتان من امتدادِ النفَس الذى يناسبُ الشدَّةَ والجهد ، وبما لاتِّحاد الحرفِ الأَخيرِ فيهما من جَرْسٍ يزيدُ من المعنى ومن قوةِ وقعهِ فى النفس .

الخلاصة :

مما تقدم يتبين لك :

١ – أَن السجعَ نوعٌ من الجرس الصوتى ، يظهرُ فى تماثُل الحرفِ الأَخير من الفواصل ، وهى الكلمات الأَخيرة من الجملِ والتراكيبِ المتوالية .

٢ – سر الجمال فى السجع الفنِّى ماله من جَرْسٍ موسيقىٍّ مؤثر ، فوق أَنه يزيدُ من قوة أَداءِ الفكرة ، مادامَ مرتبطًا بها ، وغيرَ مجتلَبٍ على الكلام .

فإذا أَدَّى التزامُـهُ إلى التكلف واجتلابِ كلمات لا يقتضيها المعنى كان ضربا من الصنعةِ المُفْسِدَة .

٣ – ظاهرةُ السجْعِ الملتَزَم اقترنت فى الأَدب العربىِّ بعصورِ الضَّعْف التى أَجدَبت فيها العقولُ ، واتَّسم النتاجُ الأَدبىُّ فيها بضحَالة الفكرةِ وبالصنعةِ اللفظيةِ المُتَكَلَّفَة ؛ ولهذا عندما قوى الأدب فى العصر الحديث تخلص من هذا السجع المتكلف .

تدريبات

١ – قال عليه السلام :

« اللهمَّ أَعطِ مُنْفِقًا خلَفا ، وأعطِ مُمْسِكًا تلفا »

(ا) بين السجعَ فى الحديث ؟

(ب) ما مدى ارتباطِ هذا السجع بالمعنى ؟ وما أَثرُهُ فيه ؟ .

٢ – من وصيةِ أَبى بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه لقائدِ جُنْدِه يزيدَ بن أَبى سُفْيان :

«. . واسمُر بالليل فى أَصحابِكَ تأْتِكَ الأَخبار ، وتنْكَشِفْ عندكَ الأَستار ، وأَكْثِرْ حَرَسَكَ ، وبدِّدْهُمْ[1] فى عَسْكَرِك ، وأَكْثِرْ مفاجَأَتَهم فى محارِسِهم بغيرِ علمٍ منهم بك ، فمن وجدتَه غَفَلَ عن مَحْرَسِهِ فأَحْسِنْ أَدبه ، وعاقِبْهُ فى غيرِ إفراط » .

(ا) يجمع الأُسلوبُ فى الفقرةِ السابقة بين السجعِ والترسل . وضح ذلك .

(ب) بين قيمةَ السجع فيه من الناحية الفنية .

٣ – من رسالة ليحيي البَرْمَكِيِّ وهوبالسِّجْنِ إلى هرون الرشيد :

« من عبد أَسلمتْه ذنوبُه ، وأَوبقته[2] عيوبُه ، وخذلَه شقيقُه ، ورفضَه صديقُه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحَدَثَان[3] ، فحلَّ فى الضيقِ بعد السِّعَة ، وعالجَ البؤْسَ بعد الدعة . . . » .

تذكرْ يا أَميرَ المؤْمنينَ كِبَرَ سنى ، وضعفَ قوتى ، وارحم شيبتى ، وهبْ لى رضاك . » .

(ا) بماذا يستعطفُ يحيي البرمكيُّ الرشيد ؟

(ب) وضح السجعَ فى رسالته .

---

(١) بدِّدْهم : فرقهم .

(٢) أوبقته : أهلكته .

(٣) الحدثان : الأحداث .

(جـ) ما رأيُكَ فى هذا السجع من الناحيةِ الفنية ؟ اذكر السبب .

٤ – لأَبى تمَّام من قصيدتهِ فى مدح المعتصمِ بعدَ انتصارهِ فى عَمُّوريَّة :

تـــدبيرُ مُعْتَصِمٍ بالله مُنْتَقِمٍ ... لله مرتَغِبٍ فى الله مُرْتَقِبِ

لم يَغْزُ قوماً ولم ينهد(١) إلى بلــد ... إلا تقدَّمَه جيشٌ من الرُّعب

(ا) اشرح البيتين .

(ب) تحدثْ عما فيهما من انتفاع بظاهرة السجع .

(جـ) ما أَثَرُ هذا السجع فى موسيقَا البيتين ؟ وضح ما تقول .

٥ – للقاضى الفاضل فى التهنئةِ بفتح بيتِ المقدس :

« فتحٌ شرَّف اللهُ به هذه الأُمة ، وجلَا به الغُمَّة ، وكشفَ المُلِمَّة ، بل شرَّفَنَا بفخْرِه ، وأَعَدَّنَا لذُخْرِه ، وخصَّنَا بفضيلتِه فى عصرِه ، وأَجرى مِنَّا ما كان قد أَبطأَ من عادة نصره » .

(ا) وضح الفكرةَ فى الفقرة السابقة .

(ب) التزمَ الكاتبُ فيها السجع . فهل يعجبُك ذلك ؟ بين سببَ ما تقول .

---

(١) ينهد : ينهض .

الجناس

١ – قال تعالى :

« ويومَ تقومُ الساعةُ يقسم المجرمون ما لبثُوا غيرَ ساعة[١] » .

٢ – وقال سبحانه :

« فأَما اليتيمَ فلا تقهرْ . وأَما السائل فلا تَنْهَرْ[٢] » .

٣ – وقال أَبو تمام :

السيفُ أَصدَقُ أَنبــاءً من الكُتُبِ ... فى حَدِّه الحدُّ[٣] بين الجدِّ واللعب

بيضُ الصفائِح لاسودُ الصحائفِ فى ... متونِهن جَلاءُ الشكِّ والرِّيَبِ

٤ – وقال حسانُ بن ثابت :

وكنـــا متى يغــز النبيُّ قبيلةً ... نَصِلْ جانبيه بالقنــا والقنابل[٤]

التوضيح

– انظر إلى الأَمثلةِ السابقة تَجِدْ فى كلٍّ منها كلمتين تماثِلُ إحداهما الأُخرى ، أَو تقاربُها فى اللفظ ، وتخالفُها فى المعنى .

فى المثال الأَول تجدُ كلمتى : (الساعة . ساعة)

وفى المثال الثانى تجد كلمتى : (تقهر . تنهر)

وفى المثال الثالث ترى كلمتى : « حد » و« الحد » وكلمتى : « الصفائح والصحائف » .

وفى المثال الرابع ترى كلمتى : « القنا والقنابل » .

وإيراد الكلامِ على هذا الوجهِ يسمَّى جناسا .

---

(١) سورة الروم : الآية (٥٥) .

(٢) سورة الضحى .

(٣) الحد : الفصل .

(٤) القنا : الرماح ، والقنابل جماعات الناس والخيل .

– لاحظ أَن الكلمتين فى المثال الأَول متفقتان فى كلٍّ شىء : فى عددِ الحروف ، ونوعِها ، وترتيبِها ، وهيئتِها ، ولذلك يسمى الجناسُ فى هذه الحالةِ تامًّا . فإِذا تغايرتِ الكلمتان المتجانستان فى نوع الحروف كما فى المثال الثانى ، أَو فى ترتيبها كما فى البيت الثانى لأَبى تمام ، أَوفى عددِها كما فى المثال الرابع كان الجناسُ ناقصاً .

أَعد النظرَ فى الأَمثلةِ لتتبين سرَّ الجمال فى الجناس ، وقِف عند الآية الأُولى تجد أَن كلمة (الساعة) فيها بمعنى القيامة ، وكلمة (ساعة) بمعناها الزمنى المعروف ، وذلك أَن الكفار فى الآخرةِ يشتدُّ ذُعْرُهم من هَوْل القيامة ، فتصغُر فى عيونِهم الدنيا ، ويقلُّ شأْنُها ، حتى يُقْسِمُوا أَنهم ما لَبِثُوا فيها غيرَ ساعة .

وهكذا ترى أَن استعمالَ لفظة واحدة فى هذين المعنيين المختلفين فيه مفاجأَةٌ تثيرُ الذهنَ وتنبهه ، فيزدادُ وضوحُ إِدراكه للمعنى ، كما أَن فيه توافقاً صوتيًّا بين الكلمتين يُكْسِبُ الكلام جَرْساً موسيقيًّا له وقعُهُ فى النفس .

* * *

وتستطيعُ أَن تلحَظَ أَن النهى فى : (لا تقهر) ملائمٌ تَمَامَ الملاءمة لضعفِ اليتيم وانكساره ، كما أَن النهى فى (لا تنهر) ملائمٌ تمام الملاءمة لحالة السائل ، ومن ثمَّ جاءَ الجناس فى الآيةِ نابعًا من طبيعةِ المعنى ، مسايراً للدلالات التى تحفُّ بالسياق ، وهذا يزيدُ الجناسَ جمالًا .

* * *

وفى بيتى أَبى تمَّامٍ ترى أَن الجناسَ الأَول « فى حدِّه الحدُّ » جناسٌ تام ، وله جمالُه وجرسُه ، على حين ترى أَن الصنعةَ باديةٌ فى الجناسِ الثانى : « الصفائح الصحائف » ، وإِن لم يُخِلَّ بالمعنى .

وفى بيتِ حسان ترى أَن الجناسَ : « القنا . القنابل » جناسٌ – ناقص ، وأَنه يلتقى مع المعنى ؛ لأَن القنا والقنابل من عُدَّةِ الحرب التى وجدَها النبىُّ صلى الله عليه وسلم من الأَنصار .

* * *

الخلاصة :

١ – الجناسُ هو تماثلُ الكلمتين أَوتقاربهُما فى اللفظ ، واختلافُهُما فى المعنى .

٢ – يكون الجناسُ تاما إِذا اتفق اللفظان فى نوعِ الحروف ، وهيئتِها ، وترتيبها ، وعددِها ، ويكون غيرَ تامٍّ إِن اختلف اللفظان فى شىءٍ من هذه الجوانب الأَربعة .

٣ – من أَسرارِ الجمال فى الجناسِ أَنه يزيدُ أَداءَ المعانى حُسْناً بما ينطوِى عليه من مفاجأَةٍ تثيرُ الذهنَ ، وتقوِّى إِدراكَه للمعنى المقصود .

وفيه كذلك جَرْسٌ صوتىٌّ يُكْسِبُ الكلام لَوْناً من الموسيقَا المؤَثِّرَة . ويزدادُ الجِناسُ جمالًا إِذا كان نابعاً من طبيعةِ المعانى التى يعبِّرُ عنها الأَديب ، ولم يكن مطلباً مقصودا يوجِّهُ هذه المعانى ، أَومتكلَّفاً مجلوباً ، جرياً وراءَ الصنعةِ الشكلية ، ومجردِ الجرسِ الموسيقى .

* * *

تمرينات

١ – قال صلَّى الله عليه وسلم : « الخيل معقودٌ فى نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامة » .

(ا) عين الجناسَ فى الحديثِ السابق ، وبيِّنْ نوعه .

(ب) ما سرُّ الجمال فيه ؟

٢ – وقال أَبو تمام :

ولم أَرَ كالمعروفِ تدعى حقوقــهُ   مغارمَ فى الأَقــوامِ وهْى مغانمُ

(ا) اشرح البيتَ بأُسلوبك .

(ب) عين ما فيه من جناس ، وبين رأيك فيه من الناحيةِ الجمالية .

٣ – وقال النابغةُ فى الرثاء :

فيالك من حَزْمٍ وعَــزْمٍ طواهُما   جديدُ الرَّدَى بين الصَّفا والصفائِحِ[1]

(ا) اشرح البيتَ السابقَ بأُسلوبٍ أَدبى .

(ب) وضح ما فيه من جناس و بين قيمتَه الجمالية .

٤ – لأَبى العلاءِ المعرى :

لم نلق غيرَك إِنسانا يـــلاذُ بــه   فلا بَرِحْتَ لعين الدهرِ إِنسانا

(ا) بماذا يصفُ الشاعر ممدوحه ؟

(ب) عين موطنَ الجناسِ فى البيت ، وبين سرجماله .

٥ – من قصيدة للخنساءِ فى رثاءِ أَخيها صخر :

إِن البكاءَ هــــو الشفا   ءُ من الجــوى بين الجوانح

(ا) اشرح البيتَ بعبارتِك .

(ب) من أَين اكتسبت عبارةُ البيت ما فيها من موسيقا ؟

---

(١) الصفا : الحجارة ، المفرد صفاة . والصفائح : حجارة رقاق تسقف بها القبور أو تبلط بها .

(ج) أَترى للجناسِ فى هذا البيتِ أَثرًا فى المعنى ؟ وضح ما تقول وبين السبب .

٦ – للبحترىِّ فى وصف معركة أَنطاكِيَّة :

وعِرَاكُ الرجالِ بين يديـــــه فى خُفُوتٍ منهم وإِغْماضِ جَرْس
من مشيح(١) يهوِى بعامل رُمْـــح ومُليحٍ(٢) من السنانِ بِتُرْسِ

(ا) اشرح البيتين فى أُسلوبٍ أَدبى .

(ب) الجناسُ فى البيتِ الثانى مرتبطٌ بالمعنى أَقوى ارتباط . وضح ذلك ، وبين ما فيه من جمال .

(ج) كان الجناسُ يُعدُّ فى نظر القدماءِ من المحسنات اللفظية . فما رأْيك فى ذلك ؟ اذكر سببَ ما تقولُ فى ضوءِ الجناس الذى أمامك .

---

(١) مشيح : المشيح الفارس يقبل وقد احتاط لما وراء ظهره .

(٢) المليح : الفارس البارع الحريص فى تلقى الضربات .

المطابقة

١ – قال الله تعالى :

« تَبَارَكَ الذى بِيَدِهِ المُلْكُ وهُو عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . الَّذِى خَلَقَ الموْتَ وَالحيَاةَ لِيبْلُوَكُمْ[1] أَيُّكُمْ أَحْسَن عَمَلاً وَهُو العَزِيزُ الغَفُورُ » .

[سورة الملك . الآيتان (١ ، ٢)].

٢ – وقال سبحانه وتعالى

« يَسْتَخفُونَ مِنَ النَاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهوُ مَعَهُم إِذ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ القَوْلِ ، وَكانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا » .

[سورة النساءِ . الآية (١٠٨)] .

٣ – وقال تعالى :

« فأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى . وَصَدَّقَ بالحُسْنَى[2] . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بالْحُسْنَى . فَسنُيَسِّرُهُ لِلْعُسرَى »

[سورة الليل . الآيات (٥ – ١٠)] .

٤ – ولابن الرومى فى رثاءِ ولده :

طواه الردى عنى ، فأَضحى مَزَارُهُ ... بعيدا على قربٍ قريبًا على بُعْدِ
لقد أَنجزَتْ فيــه المنايَا وعيدَها ... وأَخلفَتِ الآمالُ ما كان من وَعْدِ

٥ – للصاحب بن عبادٍ فى رثاءِ كثيرِ بن أَحمد :

يقولُون قد أَودى[3] كثيرُ بنُ أَحمد ... وذلك رُزْءٌ[4] فى الأَنـــام جَليلُ
فقلتُ دعونى والعلا نبكِهِ معـــاً ... فمثلُ كثيرٍ فى الأَنــام قليلُ

---

(١) ليبلوكم : ليخبركم .

(٢) الحسنى : الملة الحسنى أى الدين الإسلامى .

(٣) أودى : هلك .

(٤) رزء : مصيبة .

التوضيح :

ارجع إلى النماذجِ المتقدمة ، وتأَمل النصَّ القرآنىَّ الأَول فيها تجدْ نفسَكَ أَمام آيتين تَعْرِضان شيئا من مظاهرِ عظمتِه – تعالى – وحكمتِه ، ومن ذلك أَنه مالكُ الملكِ ، وأَنه قديرٌ على كلِّ شىء ، وأَنه خَلَقَ الموتَ والحياةَ ؛ لتتاحَ فرصةُ الإحسان فى العملِ لمن أَرادَ أَن يُحْسِنَ فيه ، وبعد ذلك الموتُ والآخرةُ ، والحسابُ والجزاءُ .

وتجدُ فى الآيتين كلمتين متضادَّتَينِ فى المعنى هما : « الموت » و« الحياة » ومع هذا التضادِّ الذى يثيرُ اليَقَظَةَ والانتباهَ ترى أَن هاتين الكلمتين قد ائتلفتا أَجمل ائتلاف فى إطار المعنى ، وساعدتا على كونه أَوضحَ وأَقوى .

انتقل إلى النموذج الثانى تجدْ آيةً كريمةً تتحدثُ عمن يخونون ويحاولون أَن يتخَفَّوا عن النــاس ، ويأْتمروا بعيداً عن الأَعين ، ناسين أَن عينَ الله تراهم ، وأَنه سيجزيهم بما صَدَرَ منهم .

وتجدُ فى هذه النماذج مطابقةً بين : « يستخفُون » و« لا يستخفُون » والفعلان فيه – كما ترى – متحدان ، ولكن التضادَّ بينهما جاء من ورود الأَول مُثْبَتاً ، والثانى منفيًّا بحرفِ النفى « لا » .

ولعلك ترى أَن هذا التضادَّ قد أَبرزَ غفلَةَ الخائنين ، وسوءَ تقديرِهم ؛ وذلك لاستخفائهم من البشرِ الذين لا يملكون من أَمرِهِمْ شيئاً ، وعدمِ استخفائهم من الله الذى يرى كلَّ شىء ، وبيده كلُّ أَمر .

* * *

وفى النموذج الثالثِ ترى نصًّا قرآنيًّا ، يوازنُ بين صِنفَينِ من الناس : صنف يعطى من ماله ، ويتقى الله فيلتزمُ ما أَمَرَ به ، ويؤمنُ بالدينِ إيماناً صادقاً ، وجزاءُ مثلِ هؤُلاءِ الجنة ، وصنف يبخلُ بما فى يده ، ويظنُّ نفسَه فى غنًى عن ربِّه ، ويكذبُ بدينِه ، وجزاءُ مثلِ هؤُلاءِ النار .

وفى الآيات مطابقةٌ ، ولكنها بين أَكثرَ من لفظتين ، وهى – كما ترى –

موازنةٌ ينتقلُ فيها الذهنُ من حالة مغرقة غاية الإغراق إلى أُخرى مناقضة لها كلَّ المناقضة ، وفى هذه الانتقالةِ من إثارة الانتباه ، ومن إظهار الضدِّ لضدِّه ، ما ينقلُ الفكرة إلى الذهن أَشدَّ وضوحاً وقوة ، وقد قيل : « وبضدِّها تتميزُ الأَشياءُ » .

* * *

وفى النموذجِ الرابعِ ترى بيتين لابن الرومى فى رثاءِ ولده ، ومما يرثيه به أَنه حُرِمَ رؤيتَه مع قربِ مزاره ، وأَن المنايا اختطفَتْه ، فأَنجزتْ بذلك وعيدَها ، وتبددتِ الآمال التى كانت معقودةً به ، وأَخلفت بذلك ما كان يُرْجَى منها .

وفى البيتين - كما ترى - مطابقتان : الأُولى بين المزار « البعيدِ على قربه » ، و« القريب على بُعْدِه » ، والثانيةُ بين « إنجاز المنايا وعيدَها » ، « وإخلافِ الآمال وعدَها » .

وفى كلتا المطابقتين ترى تضادًّا بين أَكثرَ من لفظة ، وترى وضوحاً وقوةً فى الفكرة مع زفرة حزينة ملتاعة .

* * *

وفى النموذج الخامس ترى الصاحبَ بنَ عبَّاد يرثى كثير بن أَحمد فيذكر أَن الرزءَ به كبير ، ويناشدُ الناس أَن يتركوه والعُلا ؛ ليبكياه معا .

وتقف أَمامَ الشطر الأَخير من البيتين : « فمثل كثيرٍ فى الأنام قليل » ، فتحس أَن الشاعرَ جاءَ بهذه المطابقة ، وساقَ فيها لفظةَ « قليل » ؛ ليقابل بها لفظة « كثير » ، وهى اسم المرثى ، وأَنه تكلف المعنى فى سبيل هذه التورية .

* * *

الخلاصة :

مما تقدم يتبين لك :

١ - أَن المطابقةَ هى أَن تأْتى بكلمة أو أكثر ، ثم بما يقابلُ ذلك فى المعنى .

٢ - أَن المطابقَةَ الفنيةَ هى التى تقتضيها الفكرةَ ، ويتطلبُها الموقفُ ، ولا تُجْتَلَبُ

اجتلاباً لمجرد الصنعة اللفظية .

٣ – أَن جمالَ المطابقة نَابعٌ من عرضِ المتضادَّات فى نَسق مؤتلف ، يثير الانتباه إلى الفكرة ، فيشتدُّ تقبُّلُ الذهن لها ورسوخُها فيها .

وأَن الأَضدادَ يُظهِرُ بعضها بعضاً ، وبذلك تزدادُ الفكرة وضوحاً .

وكلُّ مطابقَة لها بعد ذلك جمالٌ خاصٌّ بها ، يتضحُ مما تضفيه على الكلامِ من دلالات ومشاعر .

* * *

تمرينات

١ – قال تعالى :

« وعْدَ اللهِ لا يخلفُ اللهُ وعدَهُ ، وَلكنَّ أَكثَرَ الناسِ لا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظاهِرًا مِنَ الحَياةِ الدُّنيا وهُم عَنِ الآخرةِ هُم غَافِلُون[١] .

(ا) بماذا وصفت الآيتان هذا الصنفَ من الناس ؟

(ب) فى الآيتين مطابقةٌ . وضحها .

(ج) بين ما فى هذه المطابقة من جمال بلاغى .

٢ – لابن الرومىِّ فى وصفِ طرائحِ الطيرِ التى صادَها الرماة :

طرائحُ من سود وبيض نواصــع ... تَخَالُ أَديمَ الأَرضِ[٢] منهنَّ أَبقعَا[٣]

نُؤَلِّفُ منها بين شتَّى وإنمـــــا ... نُشَتِّتُ من أُلَّافِها ما تجمعـــا

فكم ظاعنٍ منهن مزمعِ رحلـــةٍ[٤] ... قَصَرْنا هواهُ دون ما كان أَزْمَعَا

وكم قادمٍ منهــن مرتادِ منزل[٥] ... أَناخَ بـــه منا منيخٌ فجعجعَا

(١) سورة الروم . الآيتان (٦ ، ٧) .

(٢) أديم الأرض : سطحها .

(٣) أبقع : فيه سواد وبياض .

(٤) مزمع رحلة : عازم عليها .

(٥) مرتاد منزل : باحث عنه .

(ا) عبر بقلمك عن هذه الصورةِ .

(ب) فى الأَبيات مطابقاتٌ . وضحها .

(ج) أَوحى الموقفُ إِلى ابن الروميّ بهذه المطابقات . بين ذلك .

(د) تحدث عما فيها من جمال بلاغى .

٣ - لِدِعبل يتحسَّرُ على ما أَصابَ آلَ البيتِ على يد الأَمويين :

أَلم تر أَنى من ثلاثينَ حِجـــةً ... أَروحُ وأَغدُو دائـــمَ الحسرات

أَرى فَيْئَهُم فى غيرِهم مُتَقَسَّمًـــا ... وأَيديهم من فيئهم صَفِراتِ(١)

فآلُ رسولِ الله نُحفٌ جسومُهم ... وآلُ زيادٍ حُفَّـــلُ القَصَرَاتِ(٢)

بناتُ زيـــادٍ فى القصورِ مصونةٌ ... وآلُ بنتِ رسول الله فى الفلوات

(ا) عبر عن معنى هذه الأَبيات فى أَسلوبٍ أَدبى .

(ب) فى الأبيات مطابقات وضحها ، وبين مدى ارتباطِها بالموقفِ الذى أَوحى بها .

(ج) ماذا يعجبُكَ فى هذه المطابقات من الناحيةِ البلاغية ؟ بين ما تقول .

٤ - لإِيليا أَبى ماضى :

ربَّ ذهنٍ مثلِ النهـــارِ مضىءٍ ... صـــارَ بالبؤسِ كالظـلامِ دَجيًّا

كم أَثيمٍ فى السجن لو أَدركَتْـــه ... رحمـــةُ الله كان حُـــرًّا سريًّا

(ا) وضِّح فكرةَ البيتين بعبارتك .

(ب) تحدثْ عن المطابقةِ فيهما ، وبين رأْيك فيها من الناحية الفنية .

٥ - لِدعْبل :

لا تعجبي يا سلمُ مـــــن رجلٍ ... ضَحِكَ المشيبُ برأسه فبكى

(ا) اشرح البيت .

(ب) وضح المطابقة فيه .

(ج) يرى بعض النقاد أَن المطابقةَ فى البيت مبنية على الصنعة اللفظية . فما رأْيك ؟ بين سبب ما تقول .

---

(١) صفرات : خاليات .

(٢) القصرات : جمع قصرة ، وهى العنق ، وحفل القصرات : ضخام الأعناق .

التورية

١ – لسراج الدين الوراق :

وقفتُ بأَطلال الأَحبـــة سائلًا ودمعىَ يسقى ثمَّ عهدًا ومعهَدا
ومن عجبٍ أَنى أُروِّى ديـــارَهم وحظِّىَ منْها حين أَسأَلُها الصدَى[١]

٢ – وقال ابنُ دانيال[٢] :

يا سائلى عن حِرْفَتِى فى الـــورى يا ضيعتى فيهـــمْ وإفلاسى
ما حالُ مَـــن درهمٌ إنفاقـــه يأْخـــذُه مـــن أَعين الناس

٣ – وقال نصير الدين الحمَّامى :

أَبيـــاتُ شعرِكَ كالقصو رِ ولا قصـــورَ بهـــا يَعُوق
ومـــن العجـــائب لفظُهـــا حُـــرٌّ ومعنـــاها رقيق

التوضيح :

قد يَعْرِضُ من المواقفِ ما يُلْجِئُ المتكلمَ إلى أَن يحتالَ لإِخفاءِ المعنى الذى يريدُه ، ويتلطَّفَ لستره ، فيعبرَ عنه بلفظ أَو تعبير يحملُ معنًى آخرَ يتبادرُ إلى الذهن ، فيصرفه عن المعنى المقصود الذى يحتاجُ فى الوصول إليه إلى التأَمل وإعمال الفكرِ فى الموقف الذى يعبرُ عنه الأَديب ، وفيما يحيطُ به من قرائنَ وملابسات .

وفى ضوءِ هذا التمهيد ننظرُ إلى الأَمثلة السابقة :

تأَمل المثالَ الأَولَ تجد أَن الشاعرَ فى البيتين قد وقفَ بدارِ أَحبابِه ، وقد أَصابَها البِلَى ، يناجيها ، ويسائِلُها عما كان له بها من ذكريات غالية ، وهاجَه الموقف فسالت دموعُه مدرارا ، حتى أَرْوَت الدار ، ولكنه لم يظفرْ من مساءَلَتِها بغير « الصدى » .

وقد يتبادرُ إلى الذهن أَن المرادَ من هذه الكلمة هو « العطش » ؛ وذلك لأَنها وردت بعد قوله : « أُروِّى ديَارهم » ، ولكن المعنى الذى يقتضيه الموقفُ – وإن تلطَّفَ الشاعر

---

(١) الصدى : الظمأ ، أوما يجيبك بمثل صوتك .

(٢) هو شمس الدين الموصلى كان له دكان يبيع فيه الكحل ، ويعالج العيون عند باب الفتوح بمصر ، وتوفى سنة ٧١٠ هـ .

فى سَتْرِه – هو أَنه لا يحظَى من مناجاتِه لهذه الديارِ الغالية عنده إِلا بصدَى صوته يتردد فى أَنحائِها الخرِبة .

وهكذا ترى أَن كلمةَ « الصدى » تحملُ معنيين مختلفين : أَحدُهما ظاهرٌ قريب غيرُ مقصود وهو « العطش » ، والآخر بعيدٌ خَفِىٌّ مقصود ، وهو « تردُّدُ الصوت » ، وهذا ما يسمىَّ فى البلاغة « التورية » .

* * *

وفى المثالِ الثانى ترى ابن دانيال يتخيلُ أَن هناكَ من يسأَلهُ عن حرفتِه التى يمـــارسُها ، وهو ناقمٌ عليها ؛ لأَنها من أَسبابِ ضياعهِ وإِفلاسه ، ولا يريدُ أَن يصرِّحَ بهذه الحرفة ، فيطلب إِلى سائله أَن يتصورَ حاله فى حرفتِه ، والدرهمُ الذى يكسِبُه منها إِنما يأْخذه من أَعينِ الناس » .

وقد يتبادر إِلى الذهن من هذا التعبير أَن القائل يكسِبُ ما يكسبُ عن طريقِ علاجِ العيون ، وقد كان فعلًا صاحب حانوت لبيْعِ الكحل ، ولكن المعنَى المقصود الذى يريدُه هو أن المالَ الذى يَكْسِبُه من حرفته هو – مع قلته – صعبُ المنال . كأَنما يأْخذُه من أَعينِ الناس .

* * *

وفى المثال الثالثِ ترى نصيرَ الدين الحماميَّ يمدحُ أَحَد الشعراءِ بأَن أَبيات شعرِه رائعةٌ كأَنها القصورُ ، وليس بها قصورٌ أَو ضعفٌ ، يغضُّ من روعِتها ، ويتعجبُ من جمالِها فى أَلفاظِها ومعانيها ، فيصفُ أَلفاظَها بأَنها حرةٌ ، ومعانيَها بأَنها رقيقة .

وإِذا تأَملتَ كلمةَ (رقيق) فى البيت الثانى تجد أن لها معنيين :

الأَول مأْخوذ من الرِّقِّ وهو العبوديةُ ، وهو المعنى القريب الذى قد يتبادرُ إِلى الذهن ، بعد ذكر كلمة (حر) ، والثانى هو المعنى الذى يقتضيه الموقفُ الذى يقصدُه الشاعر .

وقد ترتاحُ إِلى التورية فى المثالين : الأَول والثانى ، وتجدُ فيها شيئاً ما يبرر

إخفَاءَ المعنى البعيدِ والتورية عنه .

كما أنك تجد فيها شيئًا من البراعة التى تخفِّف من تكلُّفِ الصنعة .

أَما التوريةُ فى المثال الثالثِ فالتكلُّفُ فيها واضحٌ ؛ لأَن وصفَ أَلفاظِ الشعر بأَنها حرةٌ لا مسوِّغَ له إلا ما أَرادَه الشاعرُ من التمهيدِ للتورية .

الخلاصة :

١ – التورية أَن يَذكُرَ المتكلمُ لفظاً له معنيانِ قريبٌ ظاهرٌ غيرُ مراد ، وبعيدٌ خفىّ هو المراد .

٢ – فى التوريةِ استغلالٌ لثراءِ اللغةِ فى دِلالات الألفاظ ، وفيها لونٌ من المفاجأَة التى تنبِّهُ الذهنَ ، وتبعثُه على التأَملِ وإعمال الفكرِ فى الكلامِ ودلالاتِه اللغويةِ والشعورية ، من خلال السياقِ والقرائن .

٣ – يتحققُ جمالُ التوريةِ إذا كانت استجابةً لموقفٍ يستلزمُها ، وكانت غير متكلفة ، ولم تكن مجرَد لَعِبٍ بالأَلفاظ ، دونَ طائل فى أَداءِ الأَفكار والتعبير عن المشاعر .

وقد شاعت التوريةُ فى عصورِ الضعف اللغوىّ ، حينَ انصرفَ الأَدباءُ إلى أَلوانٍ من الصنعةِ الشكليةِ فى الكلامِ ، متوهمِينَ بأَنها ضروريةٌ لتزيينه وتجميله .

تمرينات

١ – قال القاضى عياضٌ فى صيف بارد الجوِّ :

كأَن كانونَ أَهـــدى من ملابِسِه ... لشهرِ تَمُّوزَ أَنواعاً من الحلل

أَو الغزالةَ من طولِ المَدَى خَرِفَتْ ... فما تفرقُ بين الجَدْىِ والحَمَل*

(*) كانون : من أشهر الشتاء ، وكانون الأول هو شهر ديسمبر ، وكانون الثانى هو شهر يناير ، وتموز هو شهر يوليو .

والغزالة : المراد بها فى البيت الشمس ، وهى أيضا الحيوان المعروف ، الجدى والحمل من أنواع الحيوان ، وهما أيضاً من الأبراج الفلكية .

(ا) اشرح البيتين فى عبارة أدبية . (ب) بين ما فيهما من تورية .
(ج) ما رأيك فى هذه التورية ؟ بين السبب .
٢ – لحافظ إبراهيم فى مداعبة شوق :
يقولون إن الشوق نارٌ ولوعــــة فما بال شوق اليومَ أَصبَح بارِدا ؟
(ا) عين موضعَ التوريةِ فى هذا البيت . (ب) وضح سرَّ الجمالِ فيها .
٣ – وقال بدرُ الدين الذهبى :
يا عاذلى فيــــه قــل لى إذا بَــــدا كيف أسلو
يمــرُّ بى كلَّ وقت وكلمـــا مَــرَّ يحلو
(ا) اشرح هذين البيتين . (ب) وضح التورية فيهما .
(حـ) ما رأيك فيها من الناحية الجمالية ؟
٤ – وقال ابن نبَاتة المصرى :
والنهــــرُ يشبِه مِـــبْرَدَا فَلأَجْـــل ذا يَجْلُــو الصدى
(ا) فيم يشبه النهر المِبْرد ؟ (ب) عين موطنَ التورية فى البيت .
(حـ) هل تعجبُكَ هذه التورية ؟ بين رأيك مع ذكر السبب .
٥ – من موشحة أَندلسية لأَبى عبد الله بن الخطيب :
جادك الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى يا زمـــانَ الوصـــلِ بالأَندَلُسِ
لم يكـــن وصلُك إلا حُلُمــاً فى الكرَى أَو خِلسةَ المختلس

* * *

وروى النُّعمـــان عن مـــاءِ السما كيف يروى مالكٌ عن أَنَسِ (١)
فكساه الحسن ثوبـــا مُعْلَماً يزدهى منـــه بأَبهى مَلْبَس
(ا) اشرح الأَبيات بعبارة أَدبية .
(ب) ما المراد من التوريةِ فيها ؟ وما ارتباطها بالموقفِ الذى يعبِّرُ عنه الشاعر ؟ .
(ج) ما رأيك فى هذه التوريةِ من الناحيةِ الجمالية ؟

---

(١) النعمان : إما شقائق النعمان وهى زهر أحمر ، وإما أحد ملوك الحيرة .
وماء السماء : إما المطر وإما المنذر بن ماء السماء جد النعمان بن المنذر ومالك هو الإمام مالك بن أنس إمام المذهب المشهور .

الفهـــرس

مطابع الماس ، كالياري – ايطاليا
Printed by GRAFICHE ELMAS - Vide Elmas, 206 - Cagliari - ITALY

مؤسسة ناصر للثقافة
بيروت - لبنان